١٩٠٤

مكتبة نوبل

خوسه إتشغاراي

جنون أو قداسة





ترجمة : رفعت عطفه



جنون أو قداسة



مكتبة نوبل

اسم المؤلف : خوسه إتشغاراي
عنوان الكتاب . جنون أو قداسة
ترجمة : رفعت عطفه
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠١

Author :josé Echegaray
Title :O LOCURA O SANTIDAD
Translator: Rifat Atfeh
Al- Mada P. C.
First Edition 2001

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٠٤
مكتبة نوبل

خوسيه إتشِغاراي

جنون أو قداسة

ترجمة

رفعت عطفه



مقدّمة

وُلِدَ خوسيه إتشغاراي في مدريد، شارع نينيو يوم ١٩ نيسان ١٨٣٢ .من أب سرقسطي وأمّ باسكية. علماً بأنّ كنية الأب باسكية أيضاً . كان أبوه طبيباً، لكنّه لم يكن يميل للمهنة وكان زبائنه قليلين فكرّس نفسه للتعليم بهدف زيادة دخله بما يزيد قليلاً عن دخل لم يصبح يوماً كبيراً، وهذا ما جعل الأسرة تعيش حياة شظف وفاقة أحياناً كثيرة.

كان خوسيهٔ طالباً فطناً ومجتهداً، أنهى دراسة أصعب اختصاص في إسبانيا آنذاك: هندسة الطرق وهو في العشرين من عمره بدرجة ممتازة، دون أن يرسب في مادّة واحدة على امتداد سنوات الدراسة.

تصادفت طفولته مع أوّل وأطول الحروب الأهلية الكارلوسية وانهيار الإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية في أمريكا، بينما عرف شبابه التمردات العسكرية وعدم الاستقرار السياسي والعجز الاقتصادي للبلد، وبدأت إسبانيا تتلقّى أولى اللطمات في كوبا وجزر الفيليبين .

كان جدّياً منذ بدايات حياته وكان أقصى ما يتطلّع إليه هو ألا

يتلقى أيّة عقوبة مدرسية وقد وفّى بذلك باستثناء حالة واحدة حين هرب من المدرسة الداخلية ذات ليلة ليذهب ويشاهد العرضَ الأول لإحدى مسرحيات أدلاردو لوبِّث دِ أيالا.

استطاع وهو في الثانية والعشرين من عمره أن يحصل على منصب أمين سرّ مدرسة الطرق ويعطي دروساً في علم المياه والحساب التفاضلي والتكاملي والميكانيك التطبيقي.

اعتُبِرَ خوسِهْ إتشِغاراي لسنوات طويلة واحداً من أبرز علماء الرياضيات في إسبانيا وكتب الكثير من المؤلفات العلمية في الهندسة والفيزياء: نظريات الفيزياء الحديثة وديناميكا الحرارة ونظريات الضوء الحديثة.

تزوّج في الخامسة والعشرين من عمره وبما أنّ راتبه لم يكن يكفي لتأمين حياة مريحة ولائقة فقد أسّس أكاديمية إعدادية سرعان ما جمعت طلاباً فساهمت في إنعاشه اقتصاديّاً. لكنّ الجمع بين العمل في مدرسة الطرق وأكاديميّته الخاصّة أثارَ بعضَ التساؤلات عن أخلاقيّة هذا الجمع، وقد قبل مدير الأشغال العامّة أن يجمع بين التدريس وبين العمل في أكاديميته لكنّه لم يستطيع أن يتساهل في الجمع بين أمانة سر المدرسة والأكاديمية، فما كان من إتشِغاراي إلا أن قدّم استقالته من المدرسة، لكنّ مدير المدرسة سرعان ما هُرِعِ إلى مدير الأشغال العامّة ليقول له إنّه لا يستطيع أن يستغني عن إتشِغاراي لأنه روح المدرسة ومحرِّكها،وهنا يُسارع هذا الأخير ليضحيّ بمصلحته المادّية فأغلق الأكاديمية لصالح التدريس في مدرسة الطرق. كما عرضت عليه أعمال كثيرة أخرى

تردّ عليه المال الكثير رفضها جميعاً لصالح المدرسة.

في هذه الأثناء دفعته طموحاته العلمية إلى مجال آخر: إلى دراسة الاقتصاد السياسي، وهكذا غاص عميقاً في هذا الاختصاص فأسّس مع زميل له أوّل نشرة من نوعها في **إسباني إكونوميستا**، وراح يتردّد على نادي مدريد (أتِنِئو) الذي كان نقطة لقاء المتنورين من أدباء وسياسيين ومثقفين وراح يلقي فيه المحاضرات التي سرعان ما لفتت الانتباه إلى خطابيته الآسرة. وله الفخر بأنّه مؤسّس بنك إسبانيا في عام ١٨٧٤، الذي أحدثه ليخلّصَ، بحسب قوله، الوطنَ من الربا الأجنبي، لأنّه لا يمكن أن يكون هناك استقلال سياسي حقيقيّ دون استقلال اقتصاديّ حقيقيّ.

عيَّنَهُ رويث ثوريليا وكان سياسياً يسارياً مديراً للأشغال العامّة إثر سقوط إيسابل الثانية وذلك بسبب نجاحه في المجال الاقتصادي. وقد قبل المنصب كفنّي لا كسياسي، لكنّ قدرته الخطابية، التي أشرنا إليها توّاً، سرعان ما ارتقت به إلى مصاف الخطباء السياسيين القلائل آنذاك. وكان من أهمّ ما طرحه هو الحرية الدينية. وهكذا شغل مناصب سياسية كثيرة نجح فيها جميعاً : مدير الأشغال العامّة، وزير إنماء مرتين، وزير مالية ثلاث مرات.

ومع نشوب الحرب الأهلية بين الكارلوسيين في الشمال والفدراليين في بقية المقاطعات هرب إتشِغاراي إلى فرنسا حيث أتاحت له فرصة التحرر من العمل البيروقراطي التوجُّهَ إلى

الكتابة، فألف عدداً من المسرحيات ما لبث أن مزّقها أو أحرقها. لكنّه قدّم بعد عودته إلى إسبانيا واحدة منها- **دفتر الإيصالات**- باسم مستعار هو خورّخِه أياسِكا إلى إحدى الفرق المسرحية، وبما أنّه استلم وزارة المالية حين عرف مدير الفرقة أنّ إتشِغاراي هو المؤلف الحقيقي للعمل فقد أراد هذا المدير أن يستفيد من الحالة فدّشّن هذه المسرحية في الثامن عشر من شباط من عام ١٨٧٤، وهكذا تتالت أعماله على الخشبة.

وكانت لجنة الأكاديمية السويدية لجائزة نوبل في تقديمها لكاتبنا حين منحتها له في عام ١٩٠٤ مناصفة مع فِدرِيكو ميسترال قد قالت: "بعد سطوع المسرح اليوناني كان أن تطوّر بين الإنكليز والإسبان فنٌّ مسرحي قومي. ولكي نفهم المسرح الإسباني الحديث لا بدّ لنا أن نفهم الظروف التي هيّأت له في الأزمنة الماضية. فالمسرح الإسباني يقدّم لنا منذ زمن طويل تناقضات قويّة: من جهة هناك ازدهار الخيال ومن أخرى الرؤيا الخاصّة الذكية جدّاً والعاديّة أحياناً؛ هناك من جهة الألوان البراقة ومن أخرى الميل إلى التناقضات البلاغية. يجتمع التفخيم الهائل مع الحبكة المتشابكة. ضربات تأثير لامعة، حماس شعري غنائي عظيم. إنّ عدم الانسجام حاد والصراعات تكاد تكون دائماً ذات حلول مأساوية. الجدل صارم. ومع ذلك فالحياة الداخلية غنية جدّاً ووصايا الشرف الصارمة المطبقة دون رحمة لا تنفي نضارة دفق الخيال الجامح والفوري. لقد استطاع (هذا المسرح) أن يصهر المصطنع بالأصالة الفذّة.

وكان الكاتب الذي أقرّت الأكاديمية السويدية منحه نصف جائزة نوبل للسنة الجارية وريثاً واستمراراً لتلك التقاليد الجيدة والمميزة ."

الحقيقة وكما يقول غونثالو سوبخانو إنّ أوّل ما يجب الاتفاق عليه هو أنّ مسرح إتشيغاراي يتحرّك بين مقولتين: الدراما اللازمنية والدراما المعاصرة. والدراما اللازمنية هي التي أشار إليها كلارين حين تكلّم عن كاتبنا فقال: " إتشيغاراي الدراما الرومانسية، الشعرية، الأسطورية، وتكاد تكون دائماً شعراً، مليئة بالرؤى وبالقشعريرة والرعشات، إتشيغاراي الذي لا يكاد يُعجبُ الجمهورَ الذكي أبداً ...؛ إتشيغاراي الذي لا يعجب ريبليا أيضاً، إتشيغاراي: بحر بلا ضفاف، إتشيغاراي قلب الموت . إتشيغاراي هذا، هو الذي يستمرّ في ذاكرة الغالبية كمؤلّف لمسوخ ميلودرامية، مليئة بالحشو. لكن وعلى الرغم من أنّ إتشيغاراي لم يتخلّ كلّياً عن سعيه وراء التأثيرية ولا حتى حين كتب مسرحيات مهمّة جدّاً: **جنون أو قداسة** ولا حتى حين كتب نوعاً من مسرح المدينة المتعلق بالطبقات الاجتماعية العليا: **القوّاد الكبير** ولا حتى حين حاول الاقتراب من الطبيعية: **ابن دُن خوان أو الرمزية**: الشكّ. في جميع هذه الأنواع وتحت الافتعالات العصيّة على التصحيح يوجد شيء عبثاً سنبحثُ في مسرحيات مثل في **قلب الموت** أو **هوورولدو النورماندي**، عن إشارات إلى عالَم اجتماعيّ معاش من المشاهدين، أجواءٍ معاصرة، إشكالية أخلاقيةٍ حالية أو يمكن جعلها حالية، محاولات نقد بعض المظالم وتدريبات على تبني تقنيات جديدة."

ومن الجدير بالذكر أنّ مسرحَ إتشِغاراي لا يعرف المصالحة عادةً، فهو مسرح مواجهة بين قطبين: الحقيقة من جهة والرأي من جهة أخرى، كما هو الحال في المسرحية التي بين أيدينا **والقوّاد الكبير، واللطخة التي تُنظّف**؛ وبين الحبّ والشرف، الحرّية والاستبداد، كما في **الموت على الشفاه**. والملفت للنظر أنَّ الحقيقة وهي عادة ما تكون شخصيّة لا تفسّر في رأي الآخر إلا على أساس الجنون وعملياً المنتصر في النهاية هو الرأي، العادات والمنهزم هو الحقيقة، لأنّها جنون بالنسبة إليه. فمثلاً لا شيء ينفع دُن لورِنثو العالم والعارف والحكيمُ حين يكتشف الحقيقة، ولا يكتشفها معه الآخرون. كلُّ ما يصيبه منهم هو الشفقة عليه. فلا حبّ زوجته ولا حبّ ابنته وتضحيتها في النهاية ومحاولتها الهروب أو الذهاب معه يفيده في شيء؛ كلّ ما يناله منها هو أنّها تعده أن تذهب لإنقاذه. وبذلك تخسر سعادتها وتخسر حبّها وتخسر الحقيقة أمام رأي الآخر.

رفعت عطفه

جنون أو قداسة

مسرحية في ثلاثة فصول

نثر [١]

(١) مثلت للمرة الأولى على خشبة مسرح الإسبنيول ليلة ٢٢ كانون الثاني ١٨٧٧،

توزيع الأدوار

الشخصيات	المثلون
دُنْ لورِنْثو دِ أبنْدانيو [1]	السيد بيكو
أنْخِلا	الآنسة مارين
إنِسْ	الآنسة كونْتْرراسْ
دوقة ألْمونْتِ	الآنسة فِموكْيو
إدْوارْدو	السيد كالْبو
خوانا	الآنسة بولْدوم
دُنْ توماسْ	السيد ألْترا
الدكتور برْمودِثْ	السيد بِنابيدِسْ
براولْيو	السيد ريكِلْم
بنيتو	السيد رومِئا
الخادم	السيد كاسْترو

المشهد في مدريد في بيت دُنْ لورِنْثو.

(١) نظراً لمرض السيّد بيكو ، فقد قام السيد ثِيّليو بدور دُنْ لورِنْثو ، في العرض الخامس .

إلى الممثل الكريم
دُن أنطونيو بيكو

أقوم بواجب حتمي، أمارس نوعاً من العدالة وأحاول أن أشهد بإعجابي بفطنتك الكبيرة وإلهامك الذي لا ينضب، بإهدائكَ هذا العمل، الذي اختير لصالحك حيث تبرز أنت.

أنت، الذي ومنذ التدريب على ***دفتر الإيصالات*** *رحت تكسب لي الإعجاب والنجاح، أنت الذي كنت على الخشبة وبشكل متوالٍ دون كارلوس دِ كيروسّ في* ***زوجة المنتقم****، مصرفي في* ***تلك الخاتمة لتلك الليلة****، فِرناندو الدراما؛ في مقبض السيف، بابلو في* ***كيف يبدأ وكيف ينتهي*** *ولورنثو في* ***جنون أو قداسة****.*

فأنت تستحق جيّداً (وهو تعويض متواضع تماماً، أعرف ذلك، مقابل كلّ حميّاك الرفيعة، كلّ صراخك، الممزّق للقلب، كلّ تلك الروائع التعبيرية) إليك هذا عربونَ امتناني وإعجابي وصداقتي.

خوسهْ إتْشِغارايْ

الفصل الأوّل

يمثلُ المشهدُ مكتبَ دُنّ لورنِثو، المثمن الأضلاع. على يسار المشاهد وفي البعد الأوّل مدخنة مشتعلة، وفوقها مرآة كبيرة ذات إطار أسود، في البعد الثاني يوجد باب. إلى اليمين يوجدُ باب ثانٍ في البعد الأوّل ونافذةٌ في البعد الثاني. الباب الرئيسي في العمق. في الحرفين أو الطرفين المنحرفين للمثمن رفوف كتب كبيرة. إلى اليسار طاولة مكتب، ومكتب طالب وكرسي بذراعين. إلى اليمين يوجد أريكة. على بعض الكراسي، على الطاولة، وأطراف الرفوف والجدران كتب وأشياء فنية مختلطة، لكن دون أن تبدو بمجموعها مزدحمة. التزيين أنيق وثري لكنه صارم في ذوقه: الستائر والأثاث داكنة اللون. يوم شتوي، والنور شحيح جدّاً.

المشهد الأوّل

دُن لورِنْثو، يجلس إلى الطاولة ويقرأ باهتمام.

لورِنثو-. "الرحمة - أجاب دُنْ كيخوتِهْ- يا حفيدتي هي التي استخدمها الله معي في هذه اللحظة، التي لا تقف في وجهها أخطائي، كما قلت. عندي عقل، صار حرّاً وصافياً، وقد فَرِغَ من دياجير الجهل، التي حطّت بها عليه الخرافة المرّة والمتواصلة لكتب الفروسية الكريهة. أنا أعرف حماقاتها وحيلها ولا يُثقِل عليّ غير أنّ هذه الصحوة جاءت متأخرة جدّاً ولا تسمح لي بالقيام بتعويضٍ ما، بقراءةٍ أخرى تكون نوراً للروح. أشعر بنفسي، يا حفيدتي، على وشك الموت، وكنتُ أريد فعل ذلك بشكل أُفهم به الآخرين بأنّ حياتي لم تكن سيئة إلى حدّ أن أترك خلفي سمعة مجنون، وبما أنّني كنتُ كذلك فإنّني لا أريد أن أثبت هذه الحقيقة بموتي" (يقطع القراءة ويمكثُ متفكّراً برهة طويلة.) من الجنون القتال بلا هوادة ولا راحة من أجل العدالة في معركة الحياة المضطربة، كما كان يقاتل في عالم خيالاته البطل الخالد لثربانتِس الخالد. من الجنون

حب الجمال المقدّس حبّاً مطلقاً دون إدراكه كما أحبّ هو دولْثينثا رغباتِهِ الجامحة! من الجنون المضيّ بالروح خلف المثال في دروب الوقائع الإنسانية الفظّة والتافهة، التي تشبه الجري خلف نجم في السماء عبر أرضٍ وعرة مليئة بالأشواك. جنون كما يؤكّد الجهابذة، لكنّه غير عدواني وغير مُعْدٍ، كما يبدو، ولا حاجة بنا لكيخوته آخر كي نَقْطَعَ الطريق عليه. (وقفة. ينهض بعدها ويمكث متفكّراً من جديد.)

المشهد الثاني

دُن لورِنْثو، انخِلا ودُنّ توماس. يتوقّف الأخيران عند الباب الأيمن، في البعد الأوّل ومن هناك يراقبان دُن لورِنْثو، شبه مختفيين بين الستائر.

أنْخِلا-. ألا تراه؟ كما هو دائماً: يقرأ ويتفكّر.

توماس-. يا أنخِلا، زوجك عالم بكل معنى الكلمة، لكن علينا ألاّ نتمادى بالمعرفة. فالوتر كلما شددناه أكثر ازداد صوته حدّة ، لكنّه أيضاً ينقطع بسهولة أكبر، وحين ينقطع يعقب النغمة الإلهية صمتٌ أبديّ. فبينما يتخبّط الدماغ في ارتعاشات رفيعة يترصّد الجنون: لا تنسيّ ذلك. (وقفة)

لورِنثو-. كتاب غريب، كتاب رفيع! كم من المشاكل ضمّنك ثربانتِس، ربّما دون أن يدري! مجنون بطلك! بلى مجنون؛ مجنون.

(وقفة) الذي لم يسمع غير صوت الواجب حين بدأ رحلته في الحياة، مسيطراً في كلّ لحظة على عواطفه ومهدّئاً رغباته، دون ما أيّ شمالٍ (بوصلة) غير العدالة ولا قاعدة غير الحقيقة، لقد وضع العدالة، الحقيقةَ نصب عينيه في كلّ أعماله وبطموح كافر أراد أن يمتلك كمال ربّ السماوات. .. هذا... يا له من كائن غريب في كلّ المجتمع البشري، أي دُنْ كيخوتةِ هذا بين كلّ هؤلاء السانتشوات... ثم عليه أن يدين المصلحةَ في هذا والغرورَ في ذاك والسعادةَ في الآخر، الشهواتِ الفوضويةِ في هذا، ضعف الجميع، كيف راحت أسرته ذاتها، على طريقةِ حاملةِ مفاتيح وحفيداة الفارس الجوّال، كيف راح أصدقاؤه أنفسهم، مثلهم مثل الخوري والحلاّق وسانسُنْ كارّاسكو، كيف راح العمالقة والصبايا، الدوَقَة وأصحاب الخانات، المسلمون والمسيحيون يصيحون بأعلى صوتهم: مجنون، واعتبر نفسه مجنوناً، أو أنّه تظاهر بذلك عند موته كي يتركوه يموت بسلام.

توماس-. *(مقترباً من دُنْ لورِنْثو وواضعاً يده على كتفه. أنخِلا تقتربُ أيضاً.)* *لورِنْثو!*

لورِنْثو-. توماس.... أنخِلا... هل كنتما هناك؟

توماس-. بلى، نسمع قليلاً نجواك الفلسفية. ما هو سبب هذا الترويح العظيم الذي يقوم به صديقي العزيز؟

لورِنْثو-.قراءات دُنْ كيخوتةِ، تصعدُ إلى رأسي وتختلط بفلسفاتٍ

حديثة، تتيه، كما يمكن أن يقول صديقي الدكتور، في صوامع الجوهر الرمادي.

توماس-. كما يمكن أن يقول كلّ من يريد أن يقول شيئاً عقلانياً.

أنْخِلا-. يا للرعب! هل ستبدؤون واحداً من تلك الجدالات حول الوضعية والمثالية وكلّ التيارات الأخرى الموجودة في القاموس، التي هي هوّات كثيرة أخرى من الحس المشترك؟

توماس-. لا تستنفري، يا أنْخِلا، فعندي شيءٌ أهم عليَّ أن أقولَه لِلورنثو.

لورِنْثو-. (إلى دُن توماس) وأنا عندي شيءٌ أكثر إلحاحاً سأسألك عنه.

أنخِلا-. أعتقد ذلك، شيء أكثر أهمية وإلحاحاً من الترهات والإغواءات التي تملأان بها رأسيكما، ألا وهي ابنتنا.

لورِنْثو-. (بحماس) كيف تجدين اليومَ ابنةَ عمري؟

أنخِلا-. كيف هي إنِس؟ (وقفة).

لورِنثو-. هيّا!... أجيبي! لا تبقي علينا في هذه اللهفة! (وقفة جديدة. *يُحرِّكُ دُنْ توماس رأسَهُ بانزعاج)*

أنخِلا-. يا دُنْ توماس، بالله عليك! هل هي في خطر؟

لورِنْثو-. ماذا تقولين، يا امرأة! لا تلفظي هذه الكلمة!

توماس-. كفى! كفى! لِمَ كلّ هذه السرعة! إنّها في حالة خطيرة، لا أُنكِرُ ذلك.

لورِنثو-. ماذا تقول؟

أنخِلا-. ماذا تقول؟

لورِنْثو-. ما مرضها؟ ما اسمه؟

أنْخِلا-. كيف يُعالَج؟ لأنّها يجب أن تُشفى بطريقة من الطرق. من الضروري، يا دُنْ توماس أن تُنقِذَ ابنتي.

توماس-. إنّه واحد من أكثر الأمراض ضرراً بين الأحياء. ما اسمه؟ الشعراء يسمّونه حبّاً ونحن الأطباء نعطيه اسماً آخر. كيف يُعالَج؟ اليوم يعالجه الراهب؛ من المجرب تماماً أنّه بعد شهر من استخدامه لا يبقى في أيّ من الزوجين أي ذكرى عن الألم.

أنخِلا-. أي مزاح هذا، يا دُنْ توماس! لم تترك قطرة دمٍ في عروقي!

توماس-. (بجدّية) المسألة أنها إذا تكلّمنا بجدّية ونظراً لظروف هذه البنت، ومزاجِها العصبيّ، وحساسيتِها المطلقة وحبّها الرومانسي فإنّ مرضها خطير، وإذا لم نبحث لها عن علاج سريع في هدوء الحياة الزوجية العذبة فإنّه ليؤلمني أن أقولَ لكما ذلك، يا انخِلا ويا صديقي، لكنّ الواجب يفرض عليّ قوله: انسيا إنِس الصغيرة.

لورِنْثو-. توماس!

أنخِلا-. هل تعتقد ذلك؟

توماس-. أعتقد أنّ إنِسَ ورثت الخيالَ الجامحَ والرائعَ عن والدها، وأنّ حمّى الحب تجري في كلّ عروقها أمواجاً من نار. إذا لم تزوِّجوها من إدْوارْدو وسريعاً؛ وإذ ما اقتنعت بأنَّ آمالها لن تتحقّق، فإنّ هذياناتِ أوهامها وعنف عواطفها سوف

يجرحانها جرحاً قاتلاً وإن كنتُ لا أعرفُ كيف.

لورِنْثو-. ياإلهي!

أنخِلا-. بُنيّتي!

توماس-. صرتما تعرفان رأيي، رأيي المعروض دون لفٍّ ولا دوران، وهو ما يتطلّبه استعجال الحالة والإخلاص الذي يمليه عليّ الحبّ الذي يربط بيننا وأكنّه لهذه الطفلة البريئة.

أنخِلا-. (إلى دُنْ لورِنثو بنبرة جريئة) سمعتَ ما قيل: من الضروري أن تتزوّج إنس من إدواردو.

لورِنثو-. بوديّ ذلك، يا أنخِلا. فإدواردو طيّب، ذكيّ ويُحبّ ابنتنا حتى الهذيان؛ لكنّ...

أنخِلا-. لكن ماذا؟ لسنا نبلاء وأمّ إدواردو، دوقة ألْمونْتِ، تعارضُ هذا الارتباط؟ لكن ماذا يهمُّ، إذا كان هو يريد وليست هي من ستتزوّج؟

لورِنثو-. فكّري جيّداً، يا انخِلا. نحن نغذّي تمرّد الابن على أمّه!...

أنخِلا-. فكّر جيّداً، يا لورِنثو؛ نضحي بابنتنا من أجل ترهات هذه المرأة!

لورِنثو-. ندبُ الترهات والتعاسة تبدو لي شيئاً سهلاً؛ لكن البحث عن علاج للضرر هو ما يهمُّ...

أنخِلا-. ولماذا لا تُكلّم الدوقة، يقولون إنّها، بمعزلٍ عن اهتماماتها الأرستقراطية، امرأة طيّبة وتحبّ إدواردو حتى الهذيان. تذهب إليها تتوسّلها وترجوها.

لورِنثو-. أنا أتوسّلها! أنا أرجوها! أنا أتذلّلُ! بالتأكيد لستُ من

يذهب ليطلب ابنها، هي من يجب أن تأتي إلى بيتي لتطلبَ يدَ إنِسْ. فالأعرافُ الاجتماعية، احترام المرأة، مروءتي كلّها تتطلّب ذلك.

أنخِلا-. *(متوجّهة إلى دُن توماس، الذي كان قد اقترب من الطاولة ويتصفّح كتباً)* هاهو الفيلسوف، العالمُ، الرجل التامُّ يطفحُ أمامكَ هذياناً وكبرياء.

لورِنثو-. يا أنخِلا، أنتِ ظالمة، ليس كبرياء، بل كرامة، نعم كرامة، لأنّه ليس من المروءة أن نتسوّل لجبين إنِس التي تحمل بذاته أفضلَ تاج، تاجَ الدوقية، الذي تنكره علينا أسرة أخرى بازدراء، ليس من المروءة، أكرِّر عليك، أن نمضي من باب إلى باب، خاصّة إذا نُحِتَت على أعتابها تروس، نمدّ أيدينا ليتصدّقوا علينا باسمٍ، في الوقت الذي تحمل فيه إنِسْ اسمي، الرائع نظافةً وشرفاً، مثل أيّ اسم آخر يمكن أن يكون كذلك إلى حدٍّ كبير.

توماس-. لورِنثو على حقّ، وأنتِ أيضاً، يا أنخِلا.

أنخِلا-. حسن، لا تذهب أنت واحفظ كرامتك، كرامة العالِم والفيلسوف، دون مساس، أنا، التي لست غيرَ أمٍّ مسكينة، سأذهب. أنا لا أخجل من أن أتسوَّلَ من باب إلى باب سعادةَ وحياةَ ابنتي، وليس تيجاناً ولا تروساً.

لورِنثو-. ولا أنا، يا أنخِلا: أنت على حقّ. سأذهب وليقل الناس ما يقولون ولتفكّر الدوقةُ ما تفكِّرُ. (إلى دُنْ توماس)أليس عليّ أن اذهب حقّاً؟ أنت الذي عندك رأي سديد وسليم

وتحكم على الأشياء بدم باردٍ، قل لي رأيك بصراحة.

أنخِلا-. آخ، ما هذا الرجل! ألاّ تجادل بما إذا كان عليك أن تذهب أو ألا تذهب! هذه الأشياء، أيّها السيد الفيلسوف، والسيّد الزوج تُحلُّ بالقلب وليس بالعقل. شيء مهم أنّك لم تبدأ بتقليب المجلّدات لتبحث فيها عن حلّ للمشكلة. يذهلني أنّكَ لا تبحث فيما إذا كان بين الفلاسفة الألمان أو الكلاسيكيين اليونان أو في متاهة كتب رياضياتك غير المفهومة مؤلفٌ يعالج الحالة الغريبة لمستقبل زواج الآنسة دونيا إنِس بالتحديد من دُن إدواردو دِ ألْميْدا، دوق ألْمونْتِ؛ وتحكي ما إذا كان ألف زائد باء عند أحد علمائك المفضّلين يبرهن لك على عدم مناسبة الزواج، وأنت بسبب ألف زائد باء ستترك فلذة كبدي المسكينة تموت.

لورِنثو-. لا تسخري منّي، يا أنخِلا. أنتِ تعرفين أنّني أعبدُ إنِسْ.

المشهد الثالث

دُن لورِنثو، أنخِلا، دُن توماس وإنِسْ. تدخل هذه الأخيرة من اليمين، من البعد الأوّل، حين يلفظ دُن لورِنثو كلماته الأخيرة وتتوقّف حين تسمع اسمها.

لورِنثو-. من أجل حياتها! من أجل سعادتها! لا؛ فمن أجل أن أجفف دمعة من دموعها أقدِّم دموع عينيّ كلّها، من أجل

ساعة سعادة لابنتي إنِس، أقايض راضياً في ساعات من العذاب كلّ ما تبقّى لي من حياة. *(تمدّ إنِس ذراعيها نحو والدها بحنان وامتنان دون أن يروها وترسل إليه قبلةً شغوفة)*. كفى. دعينا من الكلام عن الموضوع. سأذهب اليوم بالذات لرؤية الدوقة. سأتوسّل وأتضرّعُ وأتذلّل إليها إذا ما تطلّب الأمرُ وستذعن. ألن تذعن؟ *(حركة سرور عند إنِس، تقترب أنْخِلا وتأخذ يدَ زوجها بفيض من العواطف.)* ليس عندي ألقاب نبالة، لكن عندي ما إذا لم أستطع أن أجعله شهيراً بالعلم والدراسة...

أنخِلا–. نعم إنه شهير، يا عزيزي لورِنثو.

لورِنثو–. شهير لا، لكنّه محترم. ثمّ إنّ عندي ملايين كثيرة، ورثتها عن أهلي وسأتنازل عنها لإدواردو والدوقة كي يُزينان بها تيجانهما الرفيعة، التي أتلفها الزمن. لذلك ها أنت تعرفين، ستتزوّج إنِسْ وستصبح سعيدةً وستكون سعادتها سعادتنا.

أنخِلا–. وسعادتك، سعادتنا جميعاً، نحن الذين نعيش ناظرين إلى أنفسنا فيك. فيكَ، يا لورنثو، الذي حين لا تُقسيك العلوم، تكون أكثر الرجال حبّاً وطِيباً وفضلاً!

إنِسْ–. *(وهي تخور وتستند إلى الباب كيلا تسقط)* آيّ، يا إلهي! يا إلهي!

أنخِلا–. *(وهي تُهرع كي تسندها)* إنِسْ، بُنَيَّتي!

لورِنثو–. *(الشيء نفسه)* إنِس، إنِسْ! ما بك؟

توماس–. *(مُقترِباً منها)* كفى، يا صغيرة، ما هذا الدلال؟

إنِس–. *(مقتربة من الأريكة اليمنى وجالسة عليها، البقيّة يحيطون بها بحرص)* لا شيء، ليس شيئاً...؛ المسألة أنّني أريدُ أن أبكي...، وأنا في غاية السعادة، لا أستطيع... المسألة أنَّني أريدُ أن أضحك والدموع تنهال على عينيَّ... المسألة أنّني أُحبُّك كثيراً... كثيراً، يا أبتِ! *(تُعانقه وتدلِّله.)* ما أطيبك! ما أروع خلق الله لك! أنا سعيدة... سعيدة جدّاً. *(تنفجر بالبكاء بين ذراعي أمِّها.)*

أنخِلا–. هكذا، ابكِ يا بُنَيَّتي، رَوّحي عن نفسك. أرأيتِ كم هو طيبٌ والدك؟ أحبِّيه كثيراً.

إنِسْ–. من كلِّ روحي... ومتى سيذهب؟ اليوم بالذات، أليس كذلك؟

توماس–. *(ساخراً من وعودها الحنونة.)* آه، يا أنانية! إذن نحبّ أبانا كثيراً حين يعمل ما يسرّنا؟ وماذا لو لم يذهب إلى بيت الدوقة، هل سنحبّه أيضاً كثيراً كما نحبّه الآن؟

إنِسْ–. تماماً.

توماس–. *(بنبرة ارتياب)* إذاً تماماً؟

إنِسْ–. *(ببعض الخبث.)* حقيقةً، لكنّني سأكون من الحزن بحيث لن يخطر لي أن أقوله له.

توماس–. حسن.

إنِسْ–. قبل ذلك كان هناك شيءٌ يضغطُ على صدري ويشدُّ على حنجرتي. الآن ودون أيِّ جهدٍ...، وتلقائياً وفي الوقت الذي تجري فيه دموع سعادةٍ حلوة، تنبثقُ كلمات الحبّ. قبل ذلك

لم يكن باستطاعتي أن أقول له شيئاً آخر غير: ما أشقاني، يا أبتِ!... الآن ما عدتُ أفكِّر بنفسي، بل أفكّر به وصرخة الحبّ هذه تصعد من قلبي إلى شفتيَّ: كم أحبُّكَ!
(تعانق أباها من جديد.)

لورِنْثو-. إنِسّ، بُنيَّتي!

إنِس-. وأنتِ أيضاً، يا أُمّي...؛ أنتِ أيضاً. *(وهي تُعانِقُ أمّها، يبتعد دُن لورِنثو ودُن توماس عن الأريكة حيث تبقى أنخِلا وإنِسّ، ويمضيان إلى الوسط.)*

توماس-. يا لك من فيلسوف مسكين! انظر، ما من واحدة منهما قرأت صفحةً واحدةً من كلِّ هذه الكتب، وتعرفان أكثرَ منك. تظنُّ نفسكَ قوياً وأنت بين أيديهما شمعٌ ليّن؛ تظنُّ نفسك عالماً وأنت بين أذرعهما ساذَج، كيلا أقول غبياً، تظنُّ نفسك عادلاً ومنيعاً على الفساد وإرادة هاتين المرأتين قد تقودُك إلى كلّ أنواع الظلم والضعف.

لورِنثو-. لا، يا توماس، فعندما تتملّكني فكرة الخير تصبح إرادتي من حديد.

توماس-. لا أقول "سنرى"، لأنّهما ملاكان؛ لكن آهٍ لو لم تكونا كذلك! دعني أُحاكي الشاعر العظيم وأقول بكلامٍ شعبي: "أيُّها الإغواء، إنّ لك اسم امرأة!"

لورِنثو-. *(بشيء من التأثر.)* "كلام بكلام بكلام!" سبق وقلتَ، لا شكّ بنوع من الحيطة، إنّك تُحاكيه.

توماس-.هاأنت تبدأ الخطابة!

إنِس–. لا تُزعجْ بابا!

لورِنثو– تُرهات هذا الدكتور لا تزعجُ، يا بُنيّتي.

توماس–. إذن توصّلنا إلى أنّه باللطف والصداقة والحبِّ، بهذا الذي تسميه إغواءات غامضة لروحٍ على روح أخرى يمكن ويجب الوصول إلى...

لورِنثو–. إلى حدِّ التضحية، نعم وليس أبداً إلى الجريمة.

توماس–. حدٌّ أقصى جميلٌ لكتابٍ في الأخلاق!

لورِنثو–. بل والأفضل في الضمير.

توماس–. أليس هناك حالات سيضطر فيها هذا الضمير الصارم للتسامح مع حالات صغيرة وصغيرة جدّاً، حجمها لا يصل حجمَ حبّة الرمل لتجنّب الشرور الكبرى؟

لورِنثو–. حين يلقي بها على كاهله ستصبح بثقلِ الجبل.

توماس–. هل تصعد الجبل لأنّ المنصّة لا تكفيك؟

إنِسّ–.كفى، يا دُنْ توماس، لا تقلْ هذه الأشياء لأبي.

توماس–. باختصار: حرب حتى الموت ضدّ الشرّ، مهما كانت أشكاله وأقنعته. أليس كذلك؟

لورِنثو– .أنت قلتَ ذلك.

توماس–. تطبيق مباشر لنظريتك. وبالفعل كنت قد نسيتها مع أنّها رواية بكلّ معنى الكلمة. اسمعني جيداً، اصغوا إليّ.

لورنثو–. ماذا؟ *(تقترب أنخِلا وإنِسّ من توماس.)*

توماس–. رجتني امرأة هذا الصباح أنّ آتيك باسمها بـ...

لورِنثو–. بماذا؟

توماس–. بقبلة.

أنخِلا–. له!

لورِنثو–. لي!

توماس–. بلى، لكن لا تستنفري *(إلى أنخِلا.)* إنّها قبلة امرأة عجوز، وتأتي مبلّلة بالدموع. إنّها آخر انقباض مؤلم لشفتين مُحْتَضَرتين. إنّه الوداع الأخير لكائن لن يعود له وجود خلال ساعاتٍ قليلة.

لورِنثو–. لا أحزر.

توماس–. هي... تلك المرأة المسكينة أرسلت في طلبي هذا الصباح، فصعدتُ إلى علّيتها التي تموت فيها، قالت لي اسمها، الذي لو لم تقله ما كنت عرفته قط، وأقسمت لي بأنّها بريئة ورجتني مع ذلك أن أتدخل بينكما كي تسامحها.

لورِنثو–. أنت تتكلّم لغة لا أفهم منها كلمة واحدة.

توماس–. هل تتذكّر موت أمّك؟

لورِنثو–. *(متأثراً)* ما هذا السؤال، يا توماس! لم أعرف أبي. توفي حين كنتُ صغيراً جدّاً، لكن أمّي... آهِ، يا أمّي!

توماس–. هل تتذكّر أنّها حين شعرت بنفسها جريحة حتى الموت، أرادت أن تُكلّمك ولم تستطع وأنّها خلعت من عنقها قلادة لم تكن تفارقها أبداً ووضعتها في يدك وغرزت بأعلى درجات الضيق فيك عينيها اللتين غشتهما الظلمة الأبدية؟

لورِنثو–. أتذكّر جيّداً. تابعْ... تابعْ...

توماس–. وهل تتذكّر أنّه عند موت أمّك وفقدانك الوعي ضاعت

القلادة، واتهمت هي بالسرقة؟

لورِنثو-. هي!... هي؟ خوانا مرضعتي!... المسكينة خوانا!

توماس-. خوانا التي تُحتَضَر على بعد خطوتين من هنا في علية بائسة! خوانا التي تُناشدك في القبلة التي أتيتكَ بها الغفران!

لورِنثو-. خوانا!... أمّي الثانية!... كانت لي أمّاً حقيقيّة خلال خمس وعشرين سنة! لكن عن أيّ غفران تتكلّم؟ أيّ تسامح مع الشرّ! لا الغفرانُ تسامحٌ ولا العجوزُ المسكينة بحاجة لغفراني! هي...، هي قادرة على... مُحال!

توماس-. ليس مُحالاً إلى هذا الحدّ. حين أعلمت الفتاة التي كانت تحفظ مجوهراتِ أمّكَ القاضي بفقدان القلادة المزركشة بالماس وقاموا بالتحقيقات الأوّلية، أنكرت خوانا أنّها معها ومع ذلك ثبت أنّها انتزعتها من بين يديك وحين فقدتَ أنتَ الوعي وبعد يومين فوجئتْ وهي تضع القلادة خلف بعض الأباريق الخزفية. وحُكِمَ عليها بالسجن، أدينت وقضت حكم جريمتها في سجن مذلٍّ، وحدها توصياتك ونفوذك الفعّالة استطاعت أن تعيد إليها، ليس شرفها الضائع، بل، على الأقل، حرّيتها.

لورِنثو-. *(متأثّراً)* حسن! وأنا أقول إنّ خوانا المتهمة، خوانا التي في قفص الاتهام، خوانا التي في سجنها المذلّ بريئة، وإنّ العدالة البشرية تُخطئ.

توماس-. المظاهر...

لورِنثو-. تخدع في مرّات ليست قليلة.

توماس-. وكيف تفسّر ذلك؟

لورِنثو-. لا بدّ من وجودِ تفسير، سرٍّ نجهله.

توماس-. (إلى أنخِلا.) هاهو ينطلق لصيد الأسرار والبحثِ عن تفسيرات ما ورائية لحدث له من وجهة نظري تفسير بسيط وطبيعي يكمن في الضعف البشري.

لورِنثو-. أنا أعلم أنّ مرضعتي المسكينة لم تكن قادرة على فعلة منحطّة كتلك. ولولا المرض الذي أصابني إثر وفاة والدتي لكنتُ دافعتُ عنها، وحين أطلق سراح المسكينة اختفت وذرفتُ عليها دموعَ ألمٍ حقيقيّ، يعلم اللهُ أنّني بحثتُ عنها بلهفة في كلّ مكان، يعلم الله أنّني أردتها أن تأتي إليَّ... وهي... قاسية... لماذا لم تأتِ؟ لا، يا خوانا، يا عزيزتي خوانا، لن تموتي قبل أن أضمَّك إلى صدري، أن أردّ إليك قبلة الوداع التي أرسلتها إليّ *(باضطراب هو في كلّ مرّة أشدّ. يقرع جرساً فيظهر خادم بزي بوّاب)* أهلاً! العربة! على الفور! على الفور! سآتي بها إلى بيتي... الآن حالاً... أليس صحيحاً يا أنخِلا، أنّ عليّ أن آتي بها؟ أليس صحيحاً، يا إنِسّ؟

أنخِلا-. على كلِّ الأحوال هذا عمل إحسان.

لورِنثو-. تصحيح عادل جدّاً! (يخرج لحظةً من الباب الأيسر.)

توماس-. هذا من أكثر الأشياء طيبة، لكنّه من أكثر الأشياء سذاجةً. وسيصدّق كلّ ما ستحكيه له هذه العجوز المسكينة

ويعتبره إيماناً. سيساعدها هو نفسه على ابتداع أيّة قصّة غـريبـة. آهِ، يا أنخِـلا! علينا أن نبـحث فـي هذه المكتـبـة كالبحث الطريف والعظيم الذي قام به الراهب والحلاّق في مكتبة الشريف العبقري.

أنخِلا-. آه لو كنتُ أستطيع! (*يعودُ دُنّ لورنِثو ليدخل وقد ارتدى بزّة الشارع.*)

لورِنثو-. (*إلى دُنّ توماس.*) هيّا، لنمشِ! تعالَ معي لتساعدني على المجيء بها.

توماس-. أنا دائماً رهن إشارتك.

لورِنثو-. هل تعتقد أنّها تستطيع أن تأتي؟

توماس-. تموت البائسة ضنىً، وسيّان لفظتْ أنفاسها الأخيرة في علّيتها أو على وسائدِ عربتك أو وهي تدخل هذا القصر المسحور بالنسبة إليها. ومع ذلك فمن المحتمل أن تنعشها السعادةُ وتمنحها بعضَ الساعات من الحياة.

لورِنثو-. هيا بنا إلى هناك، وداعاً يا أنخِلا، وداعاً، يا إنِسْ.

إنِسْ-. (بدلال.) وداعاً... وبعدها... هل ستقابل الدوقة؟...

لورِنثو-. بلى، يا بُنيَّتي، سأذهب فيما بعد. أنتِ تستطيعين أن تصبري، أمّا المسكينة فلا تستطيع، هي أوّلاً.

أنخِلا-. (*جانبياً، إلى دُن توماس.*) هل تقول لي إنه إذا تزوّجت ابنتي، لن تكون عرضة لأيّ خطر؟

توماس-. أخطار الزواج، يا سيدة، ليست قليلة. (*يخرج دُن توماس وأنخِلا من العمق وهما يتحدثان بصوت خافت. خلفهما دُن لورِنثو وإنِس، التي تودّعه في الباب.*)

المشهد الرابع

تعودُ إنسٌ إلى وسط الخشبة، سعيدةً كطفلة وهي تضربُ كفّاً بكفّ.

إنسٌ-. اليوم بالذات سوف يكلّم الدوقة! لقد وعدني وهو جدّيّ تماماً، ويفي دائماً بوعده. طبعاً سيكلّمها! وأبي حسنُ الكلام! طبعاً فهو عالم. بالتأكيد سيقنعها. إذا كان رجل مثله لا يستطيع أن يُقنِعَ هذه السيّدة بأنّني يجب أن أتزوّج من إدواردو، فبماذا ستفيده كلّ دراسته؟ وما فائدة كلّ هذه الكتب بالفرنسية والإيطالية والألمانية، بل وباليونانية؟ علم لا نفع منه! لكن، هاه، ستفعل الدوقة ما يريده منها. ثمّ إنّ الجميع يقول إنّها قديسة. أليست كذلك! ما دامت أمّ إدواردو فهي قديسة. منحكِ اللهُ قداسة طيّبة! ماذا تفيدها قداستها؟ لا شيء، لا شيء، سنتزوّج. (وقفة قصيرة.) يبدو كذباً، يبدو حلماً! لا، يا إلهي؛ إذا كان حلماً فلا توقظني منه أبداً! لكنّه ليسَ حلماً! فهذا مكتبُ والدي. وهذه هي كتبه. (وهي تقترب من أحد الرفوف.) نيوتون، كانط، هيغِل، هومبولد، شكسبير، لاغرانج، أفلاطون، القديس توما... طبعاً، لو كان حلماً ما كنتُ لأتذكّر كلّ هذه الأسماء. ما أدراني أنا بمثل هؤلاء الرجال المشاهير؟ (ناظرة من الشرفة.) وحين أكرِّرُ أنّه ليس حلماً: فلأنّ المطر يسقطُ في الخارج، يسقط ويسقط؛ يا له من مطر سعيد، كأنّ الهواء حجبٌ من بلّور وأنا أرى نفسي في المرآة (تقتربُ من المرآة بدلالٍ وغنجٍ.)

أنا أنا، أنا نفسي، أعرفُ نفسي جيّداً. أنا بوجهي البيضويّ، الذي يقول إدواردو إنّه بيضويٌّ تماماً!... تصوّر ذوقه! وبعينيَّ البنّيّتين، اللتين يقول إدواردو إنّهما في غاية الجمال! لا، لا يوجد من هو مثله لقول أشياء كاذبة ولطيفة! أليس صحيحاً أنّ عينيَّ تبرقان في هذه اللحظة وعلى سعادة ودفء المدخنة بطريقة... أودّ لو أكون جميلة، أكثر جمالاً، له...؛ له... وهو لا يأتي!... كم يتأخّر! الآن وأنا أرغب بمجيئه... لن يأتي... سنرى أنّه لن يأتي. آه ما أشدّ أنانية الرجال وما أسوأهم!

المشهد الخامس

إنِسّ وإدواردو.

إنِسّ–. (خارجة للقائه.) إدواردو...؛ إدواردو!

إدواردو–. إنِسّ حياتي!

إنسّ–. يا لها من ساعة للمجيء!

إدواردو–. (بنبرة إذعان.) أنا دائماً آتي في الثانية.

إنِسّ–. والساعة الآن الثالثة.

إدواردو–. معقول؟ (وهو ينظر إلى الساعة.) لا، يا حياتي، إنّها الثانية إلاّ ربع.

إنِسّ–. (أمّارة) بل الثالثة.

إدواردو- . *(مشيراً إلى الساعة.)* الثانية إلا ربع؟ هل اقتنعتِ؟ *(مشيراً إلى ساعة المدخنة.)* وفي هذه الساعة أيضاً.

إنِسّ- . (مُهانة.) طيّب، طيّب! معكَ حقّ. ما أرقّكَ من حبيب، يساوم على الدقائق؛ ويبدو له دائماً أنَّ الوقت لم يحن للمجيء وأنّه دائماً تأخر كي ينفصل عن حبيبته إنِسّ، يربط دقّات قلبه إلى مسنّن ميقت!

إدواردو- . *(متوسّلاً.)* إنِسّ!

إنِسّ- . إذهبْ!... إذهبْ... فهي ليست الثانية بعد... ما زال أمامك خمس عشرة دقيقة... تذهب إلى طريق سان خيرونيمو، تمضي في مشوارٍ، تنظرُ إلى الناس وتعود في الثانية تماماً.

إدواردو- . إنِسّ!

إنِسّ- . إذا كانت هذه هي الساعة التي تأتي فيها عادةً! فليس هناك ما ينقص غير ذلك! ماذا سيقول مركز المراقبة الفلكي إذا سبّقتَ؟

إدواردو- . بحق الله اعذريني!... أخطأتُ.

إنِسّ- . لا، إذا كان هناك من تصرُّف بخفّةٍ فهي أنا. فرغبتي سبّقت الساعة...؛ وأنت كي تُعاقبني، تمضي وماذا تفعل، تضع أمامَ عينيّ مِيّقَت من مياقت لوسادا *(تقوم بحركة فظّة من يدها من النوع الذي يُدخِل كما يقال عامياً شيئاً في عيني الآخر.)* يا لك من عاشَق في غاية الشاعرية!

إدواردو- . أعترف بخطيئتي، وأتوبُ وأطلبُ منك المعذرة ألفَ مرّة.

إنِسّ- . تعترف؟ هذا أفضل.

إدواردو-. المسألة أنّني أتيتُ في غاية السعادة، وغاية السرور، إلى حدٍّ أنّني لم أعرف ما قلتُ، وحتى الآن لا أعرفُ ما أقول.

إنِسّ-. أنا أيضاً كنتُ ظالمة باتهامي لك، يا إدواردو؛ لكنّني كنتُ في غاية السعادة... في غاية السعادة بحيث أنّني كنتُ أرغب بمجيئك وكانت اللحظات تبدو لي قروناً.

إدواردو-. يجبُ أن تعلمي، يا روحي...

إنِسّ-. *(دون أن تسمعه.)* عليّ أن أزفَّ لك خبراً عظيماً.

إدواردو-.*(مثلها.)* أنّنا أخيراً أصبحنا سعيدين.

إنِسّ-. أعتقد ذلك، سعيدان مدى الحياة.

إدواردو-. مثل الكذب!

إنِسّ-. لأنّ والدي وعدَ اليوم، اليوم بالذات، هل فهمت؟... لكنّك لا تسمعني!

إدواردو-. (دون أن يوليها إذناً صاغية.) لأنَّ أُمّي...

إنِسّ-. أُمّك! ما بها؟

إدواردو-. ستأتي خلال نصف ساعة لتطرح موضوعَ زواجنا.

إنِسّ-. هي؟ ... الدوقة؟

إدواردو (بوقار هزلي.) السيدة دوقة أَلْمونْتِ تتشرّف بأن تطلب من السيدَين أبِندانيو هذه اليدَ البيضاء *(آخذاً يدَ إنِسّ.)* لابنها دُنْ إدواردو؛ مع أنّ أدواردو الصغير قد تمكّن منها وشدّها إلى قلبه، ولن يكون من السهل أن يفلتها حتى ولو لم يُعطوها له.

إنِسّ-. هي؟... هي ستأتي؟ صَدَقوا حين قالوا: هذه المرأة قديسة!

إدواردو–. هذه المرأة هي أمّي؛ تحبّني من كلِّ قلبِها وقد ضممتها هذا الصباحَ وهي تبكي بين ذراعيَّ، وأذعنت لتوسّلاتي. فيها الكثير من مآثر أسلافها المجيدين، فهي تولي الشرف طقساً دينياً، وتُفضّل موتي على ارتباطي بمن تحمل في اسمها أدنى وصمة، لكنّها تُقدّر قيمة دُنّ لورنِثو، مجده العلميّ، أيضاً مجده...

إنِسْ–. حسن، حسن، كفاك حكايات! يُستَخلَصُ من كلّ هذا أنّها ستأتي اليوم بالذات وأنّنا سنتزوَّجُ قريباً وسنكون في غاية السعادة، أليس كذلك؟ هذا هو ما يهمُّ، أي أكثر ما يهمّني، لا أدري ما إذا كنت أنتَ...

إدواردو–. جاحدة، أتشكّين بي؟

إنِسْ–. لا أشكُّ، لكن ليست سعادةً قليلة أن تُذعن أُمّك، إذ أنّكَ... أنتَ تُحبُّني كثيراً، أعرفُ ذلك... لكنّ... المرء مدين بالاحترام لأمّه. ولو قالت لك لا، ولأنّك ابنٌ صالح، أليس كذلك، يا إدواردو؟ ما كنت لتنكّد عليها عيشها ولتخليتَ، وروحك تؤلِمُكَ، عن إنِس المسكينة التي تُحبّك - لا تَسْمَعْ هذا، أيّها الجاحد! لا أحد يجب أن يسمعه!- التي تُحبُّك كثيراً... ودونك... تصوّر الجنون... لماتت ألماً!

إدواردو–. إنِسْ، يا غاليتي!

إنِسْ–. حتى تعرف أنّ عليك أن تكون شكوراً لأمّك، لأنّني مدينة بسعادتي لها وليس لك.

إدواردو–. قاسية! هل تعلمين ماذا كان من الممكن أن أفعل أمام

العوائق؟ هل تعلمين؟

إنِسّ-. بلى، تُذعن، وتتخلّى عنّي.

إدواردو-. هذا مُحال، لا من أجل شيء ولا من أجل أحد!

إنِسّ-. أقْسِمْ لي!

إدواردو-. أقسمُ لك بأقدس الأقداس!

إنِسّ-. يا للسعادة!

إدواردو-. يا للفرحة!

المشهد السادس

إنِسّ، إدواردو، خوانا، دُنّ لورِنثو ودُنّ توماس. تظهر خوانا في باب خلفي يسندها دُنّ لورِنثو ودُنّ توماس وتتوقّف لحظة كي تأخذ نفساً ثمّ تتقدّم. ترتدي بزّةً داكنة وبائسة.

إدواردو-. (*ملتفتاً.*) يا لها من مجموعة مكفهرّة! لماذا تأتي هذه السحابة السوداء لتغشى زرقةَ سمائنا؟

إنِسّ-. إنّها خوانا، مرضعةُ أبي، سترى أيّة رواية هي حياتها، سأحكيها لك لاحقاً.

لورِنثو-. على رسلك، على رسلك، يا خوانا.

خوانا-. من تكون هذه الآنسة؟

لورِنثو-. إنِسّ، ابنتي، اقتربي، يا إنِسّ. (*تقترب إنِسّ. يتبعها إدواردو.*)

خوانا- . ما أجملها! تبدو لي ملاكاً. حين أغمضُ عينيَّ للأبدِ وأرى كائناً مثلكِ بجانبي فهذا يعني أنّني سأكون في السماء.

لورِنثو- . خطوة أخرى.

توماس- . جهدٌ آخر: الأخير. *(يصلون إلى الأريكة حيث يُجلسان خوانا وتبقى إنس حولهم.)*

خوانا- . بودّي لو أقبّلكِ *(مشيرة إلى إنِسْ. تقترب إنِس أكثر، تأخذها خوانا من يدها وتقرّبها منها.)* لا ...، يدكِ تحرقُ وفمي يُجمّد برداً ...؛ وعليّ ألاّ أقبّلك، بعيداً بقبلتي، قبلةِ الموتِ عنكِ... *(تُبعدها بعذوبةٍ وتُفلِتُ يدَها.)* سأقبّلك بفكري...؛ بيديَّ لا.

توماس- . *(بصوتٍ خافتٍ إلى إنِسْ وإدواردو.)* هيا بنا، المسكينة تريدُ أن تكلّمه على انفراد. (إلى خوانا.) وداعاً، شدّي عزمكِ؛ انتهت الآلام.

خوانا- . نعم، آلامُ هذا العالم.

إنِسْ- . (تتوقّف برهة *لتنظرَ إليها.*) يا لها من امرأة مسكينة!

إدواردو- . تعالَي، يا عزيزتي إنِسْ. *(يخرج دُن توماس وإنِسْ وإدواردو من جهة اليمين.)*

المشهد السابع

دُن لورِنثو وخوانا

خوانا-. (بعد وقفة.) هل ذهبوا؟

لورِنثو-. بلى، يا عزيزتي خوانا، أصبحنا وحيدين.

خوانا-. أخيراً...، أخيراً جاءت اللحظة التي طالما انتظرتُها... كلُّ شيء يجيء...، لكنّ كلّ شيءٍ ينقضي. اسمعْ، يا لورِنثو، الحياة تمضي، تمضي سريعةً جدّاً، لكن قبل ذلك عليَّ أن أقولَ لك أشياء كثيرة. أولاً أنا بريئة؛ أنا...، لم أبغِ...؛ أنا... (مكروبةً.)

لورِنثو-. أعرفُ، يا خوانا، أعرف.

خوانا-. لا تعرف. كلُّ شيءٍ ضدّي...؛ كلُّ شيء.

لورِنثو-. بالله عليك، لا تزعجي نفسك؛ انسِي، ارتاحي.

خوانا-. أنسى؟ بلى؛ قريباً سأنسى. أرتاح؟ أمامي وقت طويل للراحة، فاليوم أريدُ أن أعيش...؛ وإن عانيتُ، وإن بكيتُ... أريد أن أحمل معي دموعاً وقبلاتٍ وإجهاشاً إلى الحفرة... كي أملأ ذلك الصمتَ وتلك الوحشة بشيءٍ يذكِّرُ بالحياة. (وقفة.) لذلك أردتُ أن أقول لك بعض الأشياء. لكن كيف وأنا لم أُعِدّكَ؟ لكن كيف وقبل الكشف يأتي الشكّ، وقبل الشكّ، الريبة وقبل الريبة التنبّؤ ، هذا ما لا أدري ما هو، الشبح الذي يُسقِطُ على الروحِ شيئاً يأتي هناك في

البعيد؟... أنتَ لا تفهَمُني، ولا أنا أعرف كيف أعبّرُ عن نفسي مع أنّه مضى عليّ أربعون عاماً وأنا مع الفكرة ذاتها، تصوّر أنّني أنا من يجب أن توضّح هذه الأمور جيّداً.

لورِنثو- . قولي ما يحلو لك، لكن دون أن تزعجي نفسك.

خوانا- . بلى، سأقوله، كيف سأموت دون أن أقوله لك؟ أولاً كي تقتنع أنّني لم أكن امرأة بائسة... لصّة... *(مخفية وجهها.)*

لورِنثو- . اسكتي، اسكتي، لا تلفظي هذه الكلمة.

خوانا- . ثمّ إنّ فتحَ قلبي لك هو آخر عزاء متبقٍّ لي. اعذرني، يا لورِنثو. فالذين يوشكون على الموت يصبحون في غاية الأنانية... ما يشكلُ أقصى حالات السعادة بالنسبة إليّ يشكّل ألماً رهيباً بالنسبة إليك.

لورِنثو- . كيف يمكن أن يكون بالنسبة إليّ ألماً رهيباً ما هو بالنسبة إليك سعادة، يا عزيزتي خوانا؟

خوانا- . كيف يمكن أن يكون؟ سيكون، سيكون، يا بُنيّ... اسمح لي، يا بُنَي أن أمنحك هذا الاسمَ. لن تزعل، أليس كذلك؟

لورِنثو- . بحقّ الله عليكِ، يا خوانا!

خوانا- . طيّب، أنا سأناديك يا بُنيّ...، وأنت ستناديني، يا أمّي... نادِني يا أمي. سرّت السماء أو ابتهجَ الجحيمُ، عليك أن تناديني يا أمّي.

لورِنثو- . يا أمّي!

خوانا- . *(تقذف بنفسها لتعانق دُن لورِنثو، لكنّها تتماسك وتسقط على الأريكة.)* لا. ليس هكذا...، ليس بهذه الطريقة. يا لك

من قاس!

لورِنثو-. يا لها من امرأة مسكينة! أنّها تهذي!

المشهد السابع

خوانا، دون لورنثو وإنِسّ. تدخلُ إنِس راكضةً من العمق وتقتربُ من أبيها. تأتي مضطربةً لا تكاد تلفظ الكلمات.

إنِسّ-. أبتِ...، أبتِ... الدوقة... جاءت...، جاءت... ألا تتوقّع؟

لورِنثو-. هي؟

إنِسّ-. بلى... لتطرح المسألة. لقد انتصر إدواردو.

لورِنثو-. يا للسعادة، يا بُنيَّتي! أخيراً أراد الله...

إنسّ-. هل أنت سعيد؟

لورِنثو-. *(يعانقها.)* وأنتِ؟

إنسّ-. أنا...، إذا كنت أنت... إذن قريباً، قريباً جدّاً...

خوانا-. *(ممسكة بِرُدْنِ لورِنثو.)* لا...، لا أريدكَ أن تذهب؛ يجب ألا تتركني.

لورِنثو-. *(إلى إنِسّ.)* قادم في الحال.

إنِسّ-. لا تتأخّر. وإلاّ لشعرت بالإهانة...

لورِنثو-. لا تخافي، لتستقبِلْها أنخِلا هناك في الصالة... بكلّ وقار. سأحمل خوانا إلى غرفتها وأخرج في الحال. *(تخرجُ إنِسّ من العمق.)*

المشهد التاسع

خوانا ودُنّ لورِنْثو

لورِنثو-. *(يريدُ أن يحملها لكنّها تقاوم.)* هيّا يا خوانا؛ تعالي لترتاحي. فيما بعد سنتكلّم كل الوقت الذي تريدين.

خوانا-. فيما بعد لا. وماذا لو متُّ؟

لورِنثو-. *(بقلق.)* لا تفكّري بهذا.

خوانا-. منذ عشّرين عاماً لم أرَكَ؛ والآن لا يتركونك معي لحظة واحدة. إنّهم قساة!

لورِنثو-. *(محاولاً رفعها.)* فيما بعد، يا عزيزتي خوانا.

خوانا-. وأنت أيضاً تريد الذهاب؟... أنتَ أيضاً! سأعمل على أن تبقى معي!

لورِنثو-. خوانا!

خوانا-. اسمع، هذا فقط، ولتذهب بعدها، إذا أردتَ؛ أنا من أخذ الرضيعة.

لورِنثو-. أنتِ؟

خوانا-. نعم.

لورِنثو-. ولماذا؟

خوانا-. كيلا تراها أنت.

لورِنثو-. ولماذا؟

خوانا-. لأنّه كان يوجد في داخلها ورقة وعلى الورقة كتبت أمُّكَ

كلمات لم أكن أريدكَ أن تقرأها.

لورِنثو-. وما هذه الكلمات؟

خوانا-. هذه، أعرفها عن ظهر قلب: "لورنثو، يا ولدي، في وعاء المقدسات الذي فوق رأس سريري خَبّأت شيئاً وفي مغلّف مغلق توجد ورقة. افتحها حين أموت، اقرأ ما فيها، كتبتُها في ليلة ندمٍ، اغفر لي وليلهمك الله الصبر."

لورِنثو-. *(باستغرابٍ.)* "اغفر لي، وليلهمك الله"، تقول؟

خوانا-. بلى.

لورِنثو-. *(باستغرابٍ متزايد.)* ثمّ إنّني سمعت ما لا أدري من ندم.

خوانا-. ندم كانت الكَلمة. والآن، اذهب، إذا شئت.

لورِنثو-. *(متفكّراً.)* لا. *(وقفة.)* وهذه الورقة؟

خوانا-. كتبتها أمّك، ولم يكن سرّاً عليّ، أمّا أين كانت مخبّأة فهو ما كنتُ أجهله. أمّا أنّ شيئاً كان مخبّأً في القلادة فهو ما عرفته من مراقبتي، وما كان في الورقة تكهّنت به من تيقّظي. لذلك أخذت القلادة. كانت أسيرتي الشرعية، وكلّفني ذلك السرُّ عشرين عاماً من الدموع والآلام وما لا يمكن تصوّره من مرارة وصعوبة.

لورِنثو-. غفران...، ندم...، سرّ...، أمّي!... لا أعرف ما تريدين قوله... أشباح مختلطة تمرُّ في عقلي... وما يشبه برق الضيق في قلبي. تهذين وتجعلينني أهذي معك.

خوانا-. لا.

لورِنثو-. لكن تلك الورقة المخبّأة في وعاء المقدسات...

خوانا-. كانت لي وأنت لم تَرَها، كان يجب ألاّ تراها. وبما أنّ أمّك كانت ستموت، فماذا كان يهمّها؟ قلت لك: ليس هناك ما هو أكثر أنانية من الموت.

لورِنثو-. لكن وتلك الورقة؟

خوانا-. معي.

لورِنثو-. هنا؟

خوانا-. *(حاملةً يدها إلى صدرها.)* هنا، هنا، انظرها، إنّها ورقة ليست أكثر من ورقة، ومع ذلك، فإنّها تثقلُ كثيراً على قلبي!

لورِنثو-. عليّ إذن أن أراها.

المشهد العاشر.

خوانا ودُن لورِنثو؛ دُن توماس في مؤخرة خشبة المسرح.

توماس-. لورِنثو...، لورِنثو!...

لورِنثو-. ماذا؟ *(بنبرة فجّة وقلقة.)* ماذا تريد؟

توماس-. وصلت الدوقةُ.

لورِنثو-. ساعة مُبارَكة.

توماس-. *(جانبيّاً.)* يا لها من نبرة! *(بصوتٍ مرتفع.)* تعالَ لاستقبالها.

لورِنثو-. سأذهب.

خــوانا-. لا تتــركني بحقِّ الله! بحقّ خــلاصِ روحِك! *(بصــوتٍ منخفض.)* لو تدري...

توماس-. هل ستأتي؟

لورِنثو-. بلى، لكن لا تحاصرني... أقول إنّني سأذهب.

خوانا-. لا تذهب... وسأقولُ لك كلَّ شيء...، كلَّ شيء. سأعطيك الورقــة... التي كـتبـتـهـا أمُّكَ منذ عـشــرين سنة...؛ إنّـهـا بخطّها...؛ توقيعها..؛ هذا شأنك...؛ لكن لا تتركني.

توماس-. *(في كلّ مرّة أكثر اضطراباً.)* هيّا بنا، يا لورِنثو!

لورِنثو-. قلتُ لك سأذهب... سأذهب فيما بعد. أنا أعرف متى يجب أن أذهب. اذهبْ أنتَ الآن. (إلى خــوانا جــانبــيّــاً.) أعطني الورقة.

خوانا-. *(مشيرة إلى لورِنثو جانبيّاً.)* عندما يذهب هذا الرجل.

لورِنثو-. *(بقلق)* اذهبْ

توماس-. لكن الدوقة...

لورِنثــو-. لتنتظر. ألا تتــرك هــي أخـــرين ينتظرون في قــاعــة انتظارها؟ فناسي أفضل من ناسها.

توماس-. هل أنت في وعيك؟

لورِنثـو-. في وعيي، نعم، في وعيك، لا، ما أسوأ حالتي لو كنت كذلك. اذهبْ بسرعة.

توماس-.*(يقترب منه باهتمام.)* ما بكَ، يا لورِنثو؟

لورِنثـو-. لا شيء. لا شيء...؛ تَعبٌ من سـمـاعِكَ... اتركني بحقّ الله!

توماس-. طيّب، طيّب...؛ لكن يا إلهي، ماذا حل بهذا الرجل؟

الفصل الحادي عشر

دُن لورِنثو وخوانا

لورِنثو-. ها نحن لوحدنا!

خوانا-. لورِنثو!

لورِنثو- .ماذا! تشكّين؟ انظري، سأتركك؟... وعدتني أن تعطيني الورقة! حظٌّ ابنتي ينتظرني هناك، ومع ذلك يدٌ من حديد، يد قدر مشؤوم وحديديّة تشدّني إلى جانبك، خذي هذا بعين الاعتبار، يا خوانا، فأنا عازم على التحقّق من هذا السرّ.

خوانا-. لورِنثو!

لورِنثو-. الورقة!... فأمي كتبتها لي، إنّها لي!

خوانا-. لا تنزعج مني، يا لورِنثو روحي، هاهي هنا... هذه هي *(تخرجها من صدرها.)*

لورِنثو-. *(يريد أن يأخذها.)* هاتها...

خوانا-. انتظرْ... انتظر...؛ عليَّ أن أقرأها بنفسي... سأقرأ ببطء أكثر منك... وبهذه الطريقة ما يُقال هنا لن يدخل في عينيك دفعة واحدة.

لورِنثو-. إذن اقرأي! هيّا!

خوانا- . نعم، يا عزيزي لورِنثو، لكن لا تنظر إليَّ. اسمع فقط. *(تتخذ وضعية لا يستطيع معها لورِنثو أن يرى ما هو مكتوب في الورقة.)* "لورِنثو، يا بُني، اغفر لي." *(تقرأ.)*

لورِنثو- . مرَّةً أخرى!

خوانا- . *(تتابع القراءة.)* " أعرف أنّ نهاية حياتي تقترب وأنّ الندم أسرني." *(وقفة.)*

لورِنثو- . تابعي!

خوانا- . " بودّي أن أقول لك الحقيقة وأنا أحبّك أكثر مما يسمح لي بقولها لك. اقرأ في هذه الأسطر، التي ألطخها بدموعي، سرَّ حياتك ثم اعمل ما تشاء."

لورِنثو- . (يريد الورقة.) سرّ حياتي! أعطنيها!

خوانا- . لا.

لورِنثو- . ما هذا الكابوس، يا خوانا؟ إيّ طوق من حديدٍ هذا الذي طوّقتِ به جبيني، ويضغط على صدغيّ بشكل لا يحتمل؟ أعطينيها.

خوانا- . لا والله!

لورِنثو- . يجب! *(يأخذ الورقة ويقرأ بضيق فظيع.)* "كان والدك ثريّاً، ثرياً جداً، ثروته بالملايين، بالملايين الكثيرة، وأنا فقيرة جداً، لم ننجب أولاداً." تقول: لم ننجب أولاداً!

المشهد الثاني عشر

دُن لورِنثو، خوانا وأنخِلا وبعد ذلك إدواردو.

أنخِلا -. *(تدخل فجأة.)* الدوقة!...

لورِنثو-. *(يطلق صيحة غضب، تنتزع خوانا منه الورقة وتخفيها.)*
مرّةً أخرى! اذهبي! لماذا جئتِ؟

أنخِلا -. لورِنثو... لورِنثو...

إدواردو-. *(يدخل فجأةً.)* دُنْ لورِنثو!

لورِنثو-. أنتَ أيضاً! اذهبوا! اذهبوا جميعاً!

أنخِلا -. ما هذا، يا إلهي! ما هذا؟ ما بك، يا لورِنثو؟ عدْ إلى رشدك!

لورِنثو-. اذهبوا! اذهبوا!... أرجوكم! وإذا تطلّبَ الأمرُ سأرجوكم راكعاً، لكن اتركوني! آه! من الأنانية البشرية! يظنّون أنّه لا يوجد غير عواطفهم ومصالحهم! توماس! أنخِلا!... إدواردو!... الدوقة!... الجميع!... آه، من قطرة الماء على الجمجمة!

إدواردو-. المسألة أنّ أمّي قادمة...

أنخِلا-. المسألة أنّ الدوقة قلقة من الانتظار، وهي قادمة إلى هنا...

إدواردو-. تقول إنّها تريدُ أن تبحث عن العالم في عرينك.

لورِنثو-. فلتأتِ، لكن اتركوني أنتم! اتركوني! أو أنّني سأُجنُّ من اليأس!...

أنخِلا-. لا، هذا مُحال *(إلى إدواردو.)* لا يمكن لأمّك أن تراه بهذه الحالة.

إدواردو-. تعالي، أنتِ، يا انخِلا؛ تعالي. لنكسب الوقت ونُلهها في الرواق ولنرَ ما إذا كانت إنسٌ تستطيع تهدئته خلال ذلك.

(تخرج أنخِلا وإدواردو من مؤخرة المسرح.)

المشهد الثالث عشر

دُن لورِنثو وخوانا

لورِنثو-. الورقة!... هذه الورقة المشؤومة، أين هي؟ ...هي معك!

خوانا-. *(تخرج الورقة.)* نعم.

لورِنثو-. إذن أعطيني إيّاها... تقول لم ننجب أولاداً *(محاولاً أن يقرأ، لكن دون أن يتمكّن.)* أين هي؟... لا أدري ولا أرى الحروف! سحابة تمرّ أمام عينيّ! لم ننجب أولاداً! لا أستطيع! اقرئي أنتِ، أرجوكِ... *(تأخذ خوانا الورقة.)* هنا، هنا... حيث تقول "لم ننجب أولاداً!"

خوانا-. *(قارئة.)* "يعرف زوجي أنّ مرضاً عضالاً سرعان ما سيودي بحياته. كان المسكين يحمل الموت في قلبه. أرادَ مجنوناً حبّاً أن يؤمّن لي كاملَ ثروته، وأنا أسأت التصرّف، الآن أعرف، أسأت التصرّف، لأنّه كان له أبٌ، لكن أنا... اغفر لي يا لورِنثو، أنت الطيّب والنزيه: أنا قبلتُ." *(وقفة.)*

لورِنثو-. تابعي...، تابعي...

خوانا-."بحشا عن طفل... لا أستطيع، لا أستطيع أن أكتب أكثر. خوانا تعرف هذا السرَّ. خوانا ستقول لك كلَّ شيء. أرجوك مرّة أخرى أن تغفر لي. وداعاً، يا عزيزي لورِنثو وليعنك الله. أحببتُك كابن وإن لم تكن ابننا."

لورِنثو-. أنا! أنا! أنا لم أكن!... ماذا تقول؟... أنا لم أكن ابنها! أنا أحمل اسماً ليس لي؟ أربعون عاماً وأنا أنفق من مالٍ غريب! أنا سرقتُ كلّ شيء!... الوضع الاجتماعي، الكنية، الثروة! كلّ شيء! كلّ شيء!، حتى دغدغات أمّي ذاتها، لأنّها لم تكن أمّي!...حتى قبلاتها لأنّني لم أكن ابنها!...لا، هذا غير ممكن!... أنا لستُ بائساً إلى هذا الحدّ!... خوانا...، يا خوانا...، بحقّ الله الحي القيوم قولي لي الحقيقة!. انظري، الآن ليس لأجلي؛ فليكن من أمري ما شاء الله... بل من أجل أسرتي... من أجل هاتين المرأتين الشقيتين... من أجل ابنتي... من أجل عزيزتي إنِسّ، إنِسّ حياتي...، التي ستموت...، و أنا لا أريدها أن تموت! *(يبكي بقنوط.)*

خوانا-. صحيح، نعم، لكن اسكتّ... ما همَّ، إذا كان لا أحد يعرف؟

لورِنثو-. لكنّها الحقيقة!

خوانا-. *(بصوت منخفض.)* هي كذلك.

لورنثو-. تبدو كذباً! تلك المرأة التي طالما أحبّتني لم تكن أمّي!؟

خوانا-. لا. أمّك كانت تحبّك أكثر!

لورنثو-. إذن من كانت؟

خوانا-. لورِنثو!

لورِنثو-. ماذا كان اسمها؟

خوانا-. انظر إليّ دون غضبٍ وسأقوله لك.

لورِنثو-. أين هي؟

خوانا-. تصارع عذابات الجحيم

لورِنثو-. وهل ماتت أيضاً؟

خوانا-. إنّها تموت! *(في نهاية هذا الحوار تنهض خوانا وتشكل مع لورنثو مجموعة مضطربة مضطرمة هاذية. حين تلفظ آخر جملة تسقط من جديد على الأريكة خائرة.)*

لورِنثو-. خوانا!

خوانا-. (تتلوّى ضيقاً.) لا، هذا الاسم لا!

لورِنثو-. أمّاه!

خوانا-. نعم، هذا الاسم نعم! *(تنهض بقوّة قصوى وتُعانق دُن لورنثو.)*

المشهد الرابع عشر

المذكوران مع دُنّ توماس

توماس-. هاهي هناك... هاهي تصل...

خوانا-. *(متخلصة من ذراعي دُن لورِنثو.)* اتركني، إنّهم قادمون، يجب ألاّ يروني...

لورِنثـو-. لا ...، انتظري...، لا أدري مـا أقـوله لـك...، لكن عندي أشياء كثيرة أقولها لك!...

خوانا-. فيما بعد. وداعـاً... صـار باستطاعتي أن أموت! فقد ناديتك بابني! *(تتوجّه خوانا ببطء إلى باب اليمين. يتبعها دُن لورِنثو. دُن توماس يراقب في العمق.)*

لورِنثو-. لا، ليس بعد... *(تختفي خوانا خلف الستائر. دُن لورِنثو يريد أن يدخل. يُهرع دُن توماس من العمق ويوقفه بالقوّة، يقطع عليه الطريق ويجبره على التراجع. يبقى موقف لورنثو في هذا المشهد والمشهد التالي متروكاً لفطنة وإلهام الممثل.)*

المشهد الخامس عشر

دُن لورِنثو، أنخِلا، إنِسّ، الدوقة، إدواردو ودُن توماس.
الشخصيات الجديدة تدخل من مؤخرة الخشبة.

الدوقة-. *(بلطف جمّ)* السيّد أبِندانيو؟ *(وقفة.)*

لورِنثـو-. *(بصوت حزين ومكفهر وبشيءٍ من الشرود.)* أبِنْدانيو! أبِندانيو!... لا أعلم أين هو، يا سيِّدة!

أنخِلا-. *(جانبياً.)* ماذا يقول؟

إنِسّ-. ما هذا، يا إلهي؟!

الدوقـة-. أتفهّمُ الانزعاج الذي يسبّبه لكَ حضوري، يا سيّد

أبندانيو... جئتُ أنتزع منك أحبّ الناس إلى روحك (*مشيرةً إلى إنِسّ.*) ولا أستغرب فعلاً أن تُعاملني كعدوّة. (*بطلاوة.*)

لورِنثو-. عدوّي هو قدري: وحده!

إنِسّ-. (*جانبياً.*) ما هذا، يا إلهي؟

الدوقة-. معك حقّ ،عدوّ الآباء الضاري.

لورِنثو-. وأكثر من ذلك الأبناء.

الدوقة-. لا أنفي ذلك، لكن، بعد كلّ شيء القوانين الإلهية هي التي تحكم بالآلام البشرية، ومن المحتّم احترامها. (*محاولة أن تمنح الحوار اتجاهاً آخر، لكن دون أن تتمكن من السيطرة على استغرابها.*)

لورِنثو-. آه، يا سيّدة فهذه القوانين أشدّ قسوة في بعض الأحيان مما لو كانت من صنع القسوة البشرية! (*تقوم الدوقة بحركة قلق حيّة؛ يقترب إدواردو منها؛ وإنِس من أبيها، بينما تراقبُ أنخِلا ودُن توماس بذهول.*)

إنِسّ-. (*جانبياً إلى دُن لورِنثو.*) بالله عليك، يا أبي!

إدواردو-. (*جانبياً إلى الدوقة.*) أمّاه، أُمّاه، من أجلي!

الدوقة-. (*بكبرياء وبنبرة جافّة قليلاً.*) أنا أمٌّ وأعبد ابني، أعرف أنّ سعادته مُحالة ما لم يتقاسمها مع هذه الآنسة وأفضّل أن يكون عندي ولدين على أن أفقد واحداً.

إنِسّ-. (*جانبياً إلى دُن لورِنثو.*) أرأيت، يا أبتِ ما أطيبها؟

لورِنثو-. فقدان الولد شقاء فظيع!

الدوقة-. (*بطلاوة وهي تقترب من دُن لورِنثو.*) هل تتفضّل وتمنح

ولدي اسم الابن أيضاً؟

إنِسْ - . *(بضيق وصوت منخفض.)* أجِبْ، يا أبتِ.

لورِنثو- . *(يمكثُ ناظراً إلى ابنته، يمسك رأسها بيده ثم يتأمّلها بتأثرٍ من جديد.)* ما أجملكِ! يبدو محالاً ألا يكون باستطاعتك أن تفعلي أكثر من قانون الشرف!

الدوقة- *(دون أن تستطيع السيطرة على نفسها.)* باختصار، يا سيّد، أبِندانيو، هل تريد أن يمنح ابني، دوق ألْمونْتِ، اسمَه للآنسة إنِسْ؟

لورِنثو- . *(بأقصى درجات العنف.)* لو كنتُ وغداً لكانت فرصة كي أمنح اسماً غريباً لمن ليس له اسماً خاصاً!

إنِسْ- . أبي!

أنخِلا وتوماس- . *(في آن معاً.)* لورِنثو!

الدوقة- . عليَّ أن أعترفً، صدِقاً، أنّني لا أفهم أجوبتك ولا موقفك، المختلف تماماً عن الذي كنتُ أنتظره منك، وأقتصر على سؤالك للمرّة الأخيرة: هل تقبل؟

لورِنثو- . أنا رجلٌ شريف: تستطيع الفجيعةُ أن تهزمني لا أن تُلطّخني، أيّتها السيّدة الدوقة، هذا الزواجُ مُحالٌ.

الدوقة- . *(تشعر بنفسها مجروحة وتتراجعُ قليلاً.)* ماذا!

إنِسْ- . ماذا تقول؟... أبتِ! ... مُحال؟

لورِنثو- . مُحال، نعم! لأنّني لستُ من آل أبِندانيو، لأنَّ والديَّ لم يكونا والديَّ، لأنّني لا أستطيع، يا بُنيّتي أن أمنحك إلا اسماً مضحكاً وملطّخاً؛ لأنّي أشقى البشر ولا أريدُ أن أصبح

الأكثر بؤساً؟

إنِسْ- . أبتِ، أبتِ! لماذا تقتلني؟ *(تسقطُ على الكرسيّ.)*

أنخِلا- . ماذا فعلتَ، أيُّها الأحمق؟

لورِنثو- . إنِس!... إنِسْ!... انتصرتَ، يا إلهي، لكن ارحمني! (يحيط الجميع بإنِسْ.)

الفصل الثاني

ديكور الفصل السابق ذاته. الوقت ليل. المدخنة مشتعلة. شمعة لها مرآة على طاولة المكتب.

المشهد الأوّل

يظهر إدواردو وهو يصيخ السمع عند الباب الأيمن:
يأتي بعدها إلى الوسط

إدواردو-. لا يُسمع شيء. تراها عادت إلى وعيها؟ وفي هذه الحياة، ما أقرب الحياة من الموت! *(وقفة.)* ويفكّرون أنّ عليّ أن أتخلّى عن معبودتي إنِسْ! يظنون أنّ عليّ أن أصدّق هذه القصّة المضحكة التي يرويها دُنْ لورنثو! يا له من عالِمٍ مسكين! ماذا يعرف هو عمّا يقول؟ *(وقفة قصيرة.)* حتى ولو كان كما يؤكّدُ، ألن تبقى إنسْ الأجمل والأحبّ بين النساء؟ ستكون لي، حتى ولو زحفتُ عند قدمي أمّيّ ورويتهما بدموعي. سيذعِن دُنْ لورنْثو حتى ولو كممنا فمه وألبسناه سترة الجنون، وهذه المتسوّلة البائسة التي أصابت الفيلسوفَ الطائش بعدوى هذيانها سترحل من هنا، سترحلُ بعيداً، بعيداً جدّاً عنّا! على أن تقاوِم إنِس الضربةَ التي تلقّتها من أبيها! *(يقترب من جديد من الباب ويُصغي.)* لا شيء...، لا شيء...، صمت، الصمتُ ذاته دائماً. *(يعود إلى وسط الخشبة.)* أبوها، آهٍ من أبيها! غفر الله لي، أكادُ أمقته *(منفعلاً بالتدريج.)* أحمق، كم

يتلذّذُ بتعذيبها! أبوها عالم بلا دماغ، مُلحد ذو ميول نحو القداسة، دُنّ كيخوتهِ جديد، أقل عبقرية وأكثر حذلقة، فارس باياردي مزيّف الشرف. أيّ أبٍ هذا الذي يصبو إلى كسب صدى الفضيلة بتمزيقِ قلب ابنته؟ اللعنة على هكذا فضيلة، ولكم تبدو الجريمة أفضلَ منها! لا أحد يأتي... وتمضي الساعاتُ... أحدٌ يقتربُ.

المشهد الثاني

إدواردو والدوقة، إلى اليمين.

إدواردو–. أُمّاه... إنِسَ، كيف حالها؟... هل عادت إلى وعيها؟

الدوقة–. أخيراً بحمدِ الله. مسكينة! لم أبغِ المغادرة قبل انقضاء الخطر؛ لكنّها تحسّنت. والآن يا بُني...

إدواردو–. الآنَ عليَّ أن أراها.

الدوقة–. إدواردو!

إدواردو–. وبعدها علينا أن نتكلّم مع دُنّ لورِنثو؛ ثمَّ...

الدوقة–. ثمّ عليك أن تأتي على صبري. عملتُ كلّ ما سمحت لي به اللباقة والكرامة والاحترام الاجتماعي وأكثر قليلاً. وقد آن الأوان كي تبرهن عن رجولتك وتتذكّر جيّداً من أنت وتصغي إلى صوت الواجب.

إدواردو–. حسناً ما تقولين. سأعمل ما يجب عليّ عمله، لكنني لا أعرف، اعذريني يا أمي، إذا كنا نفهم الألم بطريقة واحدة.

الدوقة– . عليك أن تتخلى عن إنِسَ الى الأبد

إدواردو– . لماذا؟ ألأنها فقيرة؟

الدوقة– . ليس هذا هو السبب.

إدواردو– . إذن لماذا، لماذا يا أمي؟ ألأنّ لورنثو يحاول القيام بعمل بمثل هذه الرفعة، والذي إذا ما حقّقه خلَّدَ اسمه في الكتب والتاريخ، بل ومن يدري ما إذا كان سيكسب مكانة مرموقة؟

الدوقة– . تبقي على مزاجك رائقاً وهذا ليس علامة سيّئة.

إدواردو– . أريد أن أثبت لك أنّني أحافظ على برودة دمي، ما عدا ذلك يجبُ أن نأخذ دُن لورِنثو بالمزاح أو حبسه في مشفى المجانين.

الدوقة– . لا تقل هذا، يا إدواردو؛ لا أحبّ أن تكلّمني بهذه الطريقة. لا تستطيع أن تتجاهل أنّ سلوك دُن لورِنثو هو سلوك رجل طيّب، على الرغم من وجود شيء من المبالغة والاستعراض الميلودرامي في مشاريعه.

إدواردو– . لماذا يتمتَّعُ بشقاء ابنته؟

الدوقة– . لأنّه يمتثِلُ للقوانين البشريّة دون أيّ احترامٍ للعواطف الإنسانية.

إدواردو– . إذا كان دُنّ لورِنثو شريفاً إلى هذا الحدّ وبريقُ الأعمال النبيلة يتمّ توارثه فلا بدّ أن ملاك حياتي غنيّة بالنبل الموروث.

الدوقة– . وغنيّة أيضاً بالعار. *(بصوتٍ خافت وعنيف وهي تقترب من ابنها.)* لا تملك إنسّ اسماً حسناً أو سيئاً تحمله، لأنّ

اسم أبيها مجهول واسم هذه المرأة موجود في سجلاّت الإصلاحية المشينة لارتكابها جريمة سرقة.

إدواردو-. اسكتي!

الدوقة-. المثل الأجمل لهذه الفتاة المسكينة أن تكون حفيدة مرضعة متواضعة، مشاركة في اغتصاب حالة مدنية، هذا إذا صدق ما يؤكِّده دُن لورِنْشو. ربّما كان من التكبّر الأرستقراطيِّ رفضُ ارتباط بمثل هذا النبل، لكن هذا ما تعتبره، أنت الذي تربيت على الحداثة، اهتمامات بالية.

إدواردو-. حسن، يا أمّي، أنا أحبُّ إنِسَ.

الدوقة-. مجنون أنتَ، يا بُني.

إدواردو-. يقولون إنّ الحبَّ جنون، ولذا ليس غريباً أن أكون كذلك.

الدوقة-. مجنون أنت وتجعلني أنا نفسي أفقدُ عقلي.

إدواردو-. هل تفضّلين ضياعي؟

الدوقة-. كفى، يا إدواردو؛ لنخرجْ من هذا البيت، الذي ساءت الساعة الأولى التي دخَلْتَهُ فيها.

إدواردو-. لكن قولي لي أليست إنسُ ملاكاً؟

الدوقة-. بدت لي المسكينة ملاكاً سماوياً حين وصلتُ وملاك آلامٍ وأنا أغادرُه.

إدواردو-. ألا يعترفُ الجميع بأنّ دُنّ لورِنشو عالمٌ وتقولين أنتِ إنّه قدّيس؟

الدوقة-. سيكون من الظلم نكران عبقريته الواضحة للعيان ونزاهته التي لا غبار عليها.

إدواردو–.إذن الشرّ ليس فيهم؟

الدوقة–. ليس فيهم.

إدواردو–. إذن أليس من الممكن تجنّب الفضيحة؟ *(وهو يقترب من أمّه وبصوت خافت.)* مَنْ يعرف أن هذه القصّة الشقيّة، حقيقة أو مزيّفة، والتي تبدو لي مزيفة أكثر ممّا هي حقيقية؟ نحن فقط سنسكت عليها. ودُن توماس وهو واحد من الأسرة. هذه المرأة المسكينة التي سيختم صمت أبديّ على شفتيها. أولا وأخيراً دُن لورنثو أبٌ وسيفعل من أجل ابنته ما لا تريدين فعله لأجلي. آهٍ، يا أمّي! لماذا البحث عن اليأس والموت إذا كانت السعادة في أيدينا؟

الدوقة–. لكن، ألا ترى، يا شقيّ؟ ألا ترى كيف يفسدُ تناقض الجريمة أفضل الأمزجة. ألا تعرف أنّك تقدّم لي عاراً وأنّك تريد أن تجعلني شريكة في النذالة؟ يا إلهي، ماذا فعلوا بابني حتى يقول هذه الأشياء وتُدغدغه مثل هذه الأفكار؟

إدواردو–. لكن من يتحدّث عن العار أو يقترح نذالةً؟ هل جَعَلَنا دُن لورنثو نفقد عقولنا أم أن عذابي يُبهجِك؟

الدوقة–. ألم تكن تتكلّم عن تفادي الفضيحة بالصمت؟

إدواردو–. بلى.

الدوقة–.إذن؟

إدواردو–. اسمعي، يا أمّي، ما قلته أو ما أردتُ قوله. إذا كانت قصّة دُنّ لورنثو صحيحة، وهذا ما أشكّ به، فيجب أن

يُبحث بحذر وتأنّ عن الورثة الحقيقيين لهذه الثروة المشؤومة، فتُمنحُ لهم بأيّ شكل من الأشكال.

الدوقة-. بأيّة ذريعة؟

إدواردو-. ليس من السهل أن تعثري على ما تطلبي منه، لكن لا تخافي ألا نجد من نعطيه، الجميع بالنسبة لمن يتلقى سيبدون جيدين

الدوقة-. لكنّ إنِسْ ستحمل اسماً ليس لها.

إدواردو-. ستحملُ اسمي، وهو يساوي الأسماء جميعاً.

الدوقة-. هاهه، معك حقّ في هذا. لكنَّ دُن لورنْثو...

إدواردو-. اتركيه بسلام، يكفيه ويزيد عنه ما عنده من فلسفاته. لنفكِّر بأنفسِنا، وفكِّري أنّ كلَّ شيءٍ، كلَّ شيء يمكن أن يُسوّى، إذا قبلتِ. كلمةٌ منك تعيد الحياةَ للمسكينة إنِسْ وتمنحني حياة جديدة، كنتِ تنتزعين مني بقسوتك ما منحته لي بحبِّكِ. أعيدي الفرحة لهذه الأسرة الشقيّة، ودون فضيحة ولا تفاخر ولا استعراضات فارغة وتعودُ الثرواتُ المغتصبة إلى أصحابها الشرعيين؟ أين العار والنذالة هنا؟

الدوقة-. تذهلني، يا إدواردو، لا أدري ماذا أقول لك؛ لكنّ صوتاً داخلياً يُحذّرني بأن هذا ليس بعدل ولا بصحيح؛ وبأنّ الخيال لا يمكن أن يفضَّلَ على الحقيقةً؛ وبأنّ الواجب عند دُنْ لورنثو ينتصر، على الرغم من هذيانه، وعندك تنتصر العاطفة على الرغم من مراوغاتك.

إدواردو-. لكن لماذا؟ أجيبيني؟

الدوقة-. لا أعرف كيف أناقشك، يا إدواردو.

إدواردو-. ما لا تعرفينه هو كيف تحبّينني.

الدوقة-. أنا لا أحبّك، أيّها القاسي! أنت نفسك لا تصدّق حين تقوله، لكنّ قلبي يتقطّر ألماً وأنا أسمعه!

إدواردو-. إذن، تنازلي!

الدوقة-. بالله عليك يا بُني!

إدواردو-. ستتنازلين، أرى ذلك جيّداً؛ فجبينك شاحب وفي عينيك دموع وشفتاكِ ترتعشان. *(بصوتٍ ودود.)* فهما ترتعشان لتقولا لي نعم؛ ولماذا لا؟ هل في كلّ ما فكّرتُ به من شيء لا ينسجم بالمطلق مع مثالية الكمال الأخلاقي، التي تعزفان على وترها أنتِ ودُن لورنثو؟ هل من سوء فيما أطرحه؟

الدوقة-. بلى، يا إدوارْدو.

إدواردو-. لا بدّ أنّه قليل! ذرّة، ظلّ، حيرة صغيرة. ألا أستحقّ ألمَ خطيئة عرضيّة؟ ابحثي في القرية عمّن تعاملينه أحياناً بازدراء شديد وتفصلك عنه تربيتُك الأرستقراطيّة بهاوية عميقة، ابحثي عن أمٍّ واسأليها بحياة ابنها ما إذا كانت لا تخنق بصرخة حبٍّ كلَّ رقّة الوعي.

الدوقة-. *(باندفاع عاطفي.)* المسألة أنّ ما يمكن لأمّ أن تفعله يمكنني أن أفعله أنا أيضاً.

إدواردو-. شكراً، شكراً، يا أمّاه!

الدوقة-. لكن...

إدواردو-. لقد قلتِه، لقد قلتِه. (دون أن يتركها تتكلّم.) ثمّ إنّه ربّما لم يكن ضرورياً. من الذي يمكن أن يؤكّد أنّ ما قاله دُنْ لورِنثو صحيح؟ ما البراهين الماديّة الموجودة؟ ما من برهان بحسب ما نعرف. قول امرأة تُحْتَضَر وتهذي. وهل يكفي هذا؟

الدوقة-. الحقيقة، لا.

إدواردو-. ونحن لا نملك حتى هذا، لأنّ دُن توماس لم يستنطق خوانا حتى الآن. هل نعرف إن قالته أو حلم به دُن لورِنثو؟ آه، تفكير دُنْ لورِنثو ليس موثوقاً!

الدوقة-. لا، ليس موثوقاً.

إدواردو-. يا للمُغالاة، ياللهول!

الدوقة-. أنا ظننتُ أنّه جُنَّ.

إدواردو-. لا بدّ أنّه جُنّ. هؤلاء العلماء جميعهم ينتهون إلى الجنون. دُن توماس نفسه يعترف وكذلك أنخِلا بأنَّ دُن لورِنثو لا يفكّر كبقية الرجال.

المشهد الثالث

المذكوران وأنخِلا إلى اليمين

أنخِلا-. بالله عليكِ، يا سيِّدة، لا تتركينا بعد، فإنِسْ تريدُ أن تراكِ، تُناديك وهي تفيضُ بالدموع، أنتِ غذاؤها الوحيد.

الدوقة-. يالها من فتاة مسكينة!

أنخِلا–. غادرت فراشها دون أن نستطيع منعها، لأنّ اضطرابها العصبيّ من الشدّة بحيثُ يبعثُ على الخوف، وأرادت أن تأتي لتبحث عنك، لكّن القوّة خانتها. بالله عليكِ، اذهبي، أيّتها الدوقة، لمواساة ابنتي، أنتِ الأم الحنون تطلبه منكِ أمّ مفجوعة.

إدواردو–. وستقولين لها إنّه ما زال هناك أمل وإنّ كلّ شيءٍ يعود لدُنْ لورِنْثو، أليس كذلك؟

أنخِلا–. كيف! هل هذا معقول؟ يا سيّدة؟ *(تقتربُ من الدوقةِ وتأخذ يدها بتأثر شديد.)*

إدواردو–. نعم، أنا سأوضّح لك... *(إلى أنخِلا.)* عليك أن تناشدي روح زوجكِ.

الدوقة–. لكن... *(ينفصل إدواردو مع أنخِلا جانباً دون أن يهتمّ بأمّه، ويتكلّمان بصوتٍ منخفض وعلى انفراد.)* إدواردو هذا ابني ويفعل بي ما يشاء! ماذا سأقول للسيّدة الطيّبة إذا كان يقول إنّني موافقة؟... ، آه ما أشدّ عناده!... والبنت جميلة مثل ملاك، ولطيفة كما لا يوجد مثلها. مسكينة إنِسْ! ودُن لورِنثو يملك أو كان يملك ثروة ملكية... آه، من عظمة وترهات البشر!

أنخِلا–. فهمتُ، فهمتُ *(إلى إدواردو ثم تلتفتُ إلى الدوقة.)* كم أشكرك على طيبك! احملي الخبر الطيّب إلى المسكينة إنِس، وسأحاول خلال ذلك أن يوافق دُن لورنثو وسيوافِق، نعم، ضروريّ. إمّا أنّه ليس عنده قلب وإما أنّه سيوافق.

إدواردو- . هيّا، يا أمّاه.
الدوقة- . (جانبياً .) كيف سيكون ذلك!
إدواردو- . ما أطيبكِ! *(تخرج الدوقة وإدواردو من جهة اليمين.)*

المشهد الرابع

أنخِلا ودُنّ لورِنثو، الأخير من جهة اليسار.

لورِنثو- . هاهي أمّي هناك تُحْتَضَر... وهناك فلذة روحي... ماذا أفعلُ، يا إلهي؟ *(يتوجّه ببطء إلى الباب الأيمن، لكنّ أنخِلا تقطع عليه الطريق لحظةَ الدخول.)*
أنخِلا- . إلى أين تذهب، يا لورِنثو؟
لورِنثو- . لأرى ابنتي.
أنخِلا- . مُحال... عادت إلى وعيها وحضورك يمكن أن يُسبّب لها ضرراً شديداً، على الأقل كالذي سبّبته لها كلماتك.
لورِنثو- . المسألة أنّني أريد رؤيتها.
أنخِلا- . المسألة أنّ عليك ألا تراها؛ وبما أنّ الواجب عندك يفرض نفسه دائماً، ليس بإرادتي، التي ليست شيئاً أمام إرادتك، فبإرادتك الرزينة ذاتها(ساخرة.) ستحترم بكاء المسكينة إنسّ المنزوية.
لورِنثو- . انتِ على حقّ. *(وقفة. يأتي الاثنان من وسط الخشبة.)* فلذة كبدي، ماذا تقول عنّي؟

أنخِلا- . لا شيء.

لورِنثو- . ألا تتهمني؟

أنخِلا- . لا أدري ما يهمس به الألمُ في أعماقها.

لورِنثو- . أأكون أنا جلاّدها! أنا أخرب كلّ آمالها! أنّا أُحطّمُ قلبَها!

أنخِلا- . تعي تماماً عملك، يا لورِنثو. سيكون من حسن حظّنا إذا ما أفادك الندم في إصلاح ما خرّبت.

لورِنثو- . يا لي من شقيّ!

أنخِلا- . (بسخرية.) أنت، شقيّ! الشقيّة هي، ولستَ أنتَ الذي بتأمّل كمالك الأخلاقي وفضائلك العليا ستجد بالتأكيد متعاً أكيدةً وعزاءً إلهياً.

لورِنثو- . ما أسوأ حكمك عليَّ وما أسوأ فهمك لي!

أنخِلا- . (بسخرية لاذعة.) أسيء الحكم عليك، وأعجب بتواضع بثمارِ قداستك! لا أفهمك! في هذا أنت على حقّ، فمن هم مثلك من الرفعة ليسوا بمتناول أصحاب الذكاء البائس مثل ذكائي.

لورِنثو- . كلماتك تخزني، يا أنخِلا، في قلبي مثل الخناجر الحادّة.

أنخِلا- . في قلبك! مُحال!

لورِنثو- . ماذا تريدين مني أن أفعل؟ تكلّمي، انصحيني، قرّري، أنيري روحي، التي تتخبّط في الظلمات.

أنخِلا- . ماذا أردتك أن تفعل؟ ما أريده الآن. أن تنقذ حياة ابنتكَ. ألاّ تضع عوائق أكثر أمام عرسها. ألاّ تثير كبرياء الدوقة بإيحاءت وحشية وغير مجدية. ألاّ تجعلَ محالاً إصلاح

الضرر الذي تسبَّبتَ به بفضائحك الجديدة.

لورِنثو-. بوضوح، تريدينني أن أخرس.

أنخِلا-. بلى، أن تخرس.

لورِنثو-. لكن سيكون هذا مشيناً.

أنخِلا-.لا أدري، أنا أشعرُ، لا أجادِل.

لورِنثو-. المسألة أن كياني كلّه يثور أمام هذه الفكرة. أنا شريك في أبشع الجرائم، لأنها الأكثر جبناً! أنا أتمتّع بثروات مغتصَبَة وأسماء مستعارة وسعادة ليست لنا، لأنّ الله لم يبغِ أن تكون لنا فهو لا يريد ويجب ألاّ تكون لنا! إنسٌ، وأنتِ وأنا متورّطون في الوحل! هل هذا ما تنصحينني به؟ *(مثاراً جداً.)* إذن الفضيلة كذبة؛ إذن أنتما، الكائنان اللذان هما أكثر من أحببتُ في العالم لأنّني رأيتُ فيكما شيئاً مقدّساً، أنانيتان بائستان، تمقتان التضحية، أسيرتا الجشع، دميتا العواطف، إذن.... أنتما تراب، لستما غير تراب! إذن إذا كنتما تراباً، فتحلّلا إلى غبار ولتجرفنا ريح العاصفة جميعاً! *(بأقصى درجات العنف.)*

أنخِلا-. لورنثو!

لورِنثو-. الكائناتُ التي بلا ضمير ولا مشيئة ذرّات تَتَّحِدُ اليوم لتنفصل غداً! هذا هو سبيل المادّة فدعوها تمضي!

أنخِلا-. أنت تهذي، يا لورنثو! أنا لا أفهمك! لا أعرفُ ما تريد!

لورِنثو-. احترام العدالة والحقيقة.

أنخِلا-. الحقيقة؟

لورِنثو-. بلى.

أنخِلا-. وتقول هذا بصوت عالٍ للعالم كلّه؟

لورِنثو-. سأقوله.

أنخِلا-. وتتركنا في البؤس؟

لورِنثو-. سأكسب قُوَتكُما وقُوْتي بعملي.

أنخِلا-. تكسبُ أنت؟ غرور عالم! لكن ليكن. اسمعْ، يا لورِنثو! إذا لم تكن هذه الثروات لك فأعدها في ساعة مباركة. (يصرخُ لورِنثو صرخة فرح ويقترب من أنخِلا مفتوح الذراعين.) لا الحرمان يخيفني ولا أنا بالبائسة والأنانية التي رسمتها منذ قليل.

لورِنثو-. أنخِلا، عزيزتي أنخِلا، اغفري لي.

أنخِلا-. هل تريدُني أن أغفر لك؟ هل تريدني أن أبقى أُبارك كما باركتُ دائماً الساعةَ التي أصبحتُ فيها زوجتك؟

لورِنثو-. بلى.

أنخِلا-. حسنٌ إذن، نفّذ ما تراه كرجل شريف، لكن بصمت وحكمة ودون ضجة ولا تبجّح ولا فضيحة.

لورِنثو-. ولماذا. إذا كانت الدوقة لا تُريدُ حتى بهذا الشكل أن يصبحَ إدواردو زوجَ ابنتي.

أنخِلا-. إدواردو يستجيب لموافقة أمّه.

لورِنثو-. ولن تذعِن.

أنخِلا-. ستذعنُ، إنّها أمٌّ، أمّ. لا يدرك الجميع كمالك.

لورِنثو-. لا أظنُّ.

أنخِلا-. لا تظنّ أم أنّك تخاف؟

لورِنثو-. لنفترض أنّها أذعنت، كيف سأحتفظ باسم ليس لي؟

أنخِلا-. ذكاء بائس هذا الذي تضحّي بحياة إنس لأجله.

لورِنثو-. الاسم في الحياة الاجتماعية، يا انخِلا...

أنخِلا-. الاسم صوت، هواء يهتزّ، شيء يمرّ؛ غرور إنساني! والابنة كائن مصوغ من لحمنا ومن دمِ عروقنا، كائن حين ينبثق من العدم نأخذه في أحضاننا وحين يأتي إلى العالم نأخذه بين أذرعنا، يمنحنا الابتسامة الأولى والقبلة الأولى والبكاء الأول، يعيش من حياتنا وهو متعتنا الأنقى وألمنا الأكثر حدّة في آنٍ معاً، كائن نحبّه أكثر ممّا نحبُّ أنفسنا، لكن دون خميرةٍ الأنانية التي تقبِّحُ كلَّ ما تبقى من حبّنا، الحبّ المقدّس الوحيد الموجود على الأرض وسيوجدُ، إذا كانت السماء سماءً، هناك خلف الزرقة وفي الله نفسه أيضاً. اختر الآن! أيّها العاق! بين ما تسميه اسماً وبين ما أسميه أنا ابنة.

لورِنثو-. كلماتُكِ تُجَنّنني، يا أنخِلا.

أنخِلا-. جُننت لتعذيب إنسٌ، فهل كثير عليك أن تُجنّ من أجل سعادتها؟

لورِنثو-. أنخِلا...، أنخِلا...، في قسم...، نعم...، معك حقّ... فأنا معتوه بائس...، ربّما كنتُ مبالغاً في شكوكي. ابنتي، عزيزتي إنسٌ، غاية في الطيبة وغاية في الجمال! وسأموت... بلى ... سأموت!

أنخِلا- . أخيراً! يا لورنثو، يا عزيزي الطيّب لورنثو

لورِنثو- . لكن انتظري...، لا ...، أفكاري تختلط...، إعصار من نار يدور في جمجمتي! ومع ذلك أفهم أنّه لا يكفي التنازل عن الأملاك التي عندي، فمن الضروري أن أقول لماذا أتنازل عنها .

أنخِلا- . لورنثو!

لورِنثو- . *(دون أن يسمعها وكأنّه يُكلِّمُ نفسَهُ.)* بطريقة أخرى، أعيدُ مادّياً أملاكاً مادّية، هذا صحيح، لكن دون الاعتراف بالحقّ الشرعي للأشخاص الذين نهبتهم. أعيدُ ما يجب أن أعيده بكامله، إذن، بغدرٍ وجبنٍ، في ظلٍّ قانون آخر مزيّف وباطِلٍ سننته لراحتي وراحةٍ وصالح أسرتي، بفنون شريرة.

أنخِلا- . كم من الكلمات الرنانة، يا لورنثو!

لورِنثو- . *(دون أن يوليها انتباهاً.)* حين أحتفِظُ باسمٍ ليس لي، فهذا يعني أنّني لصٌّ بائس، من الضروري قول ذلك، مهما أحرقت الكلمة شفتيّ. أسرق اسماً وحقّاً، أحرم ضحاياي من أقوى وسائلهم، من دفاعهم عن أنفسهم، من طمع يمكن أن تستيقظ في أيّ وقت عند أسلافي وأفسح الفرصة في المستقبل لمظالم جديدة. أرأيتِ؟... أرأيتِ، أيّتها المرأة العمياء؟ يجبُ قول الحقيقة، بصوتٍ عالٍ، وليحدث ما يحدث.

أنخِلا- . لورنثو!

لورِنثو- . القاضي، المحكمة بحكمها هل ستنتزع منّي أملاكي فقط أم أملاكي واسمي معاً؟ كلّ شيء، كلّ شيء، أليس صحيحاً؟

يفعله قاض عليَّ أن أفعله أنا، أن أكون قاضي نفسي أو أنّني سأكونٌ بائساً. هذا هو، أيتها الشقية، هذا هو ما يصرخُ به ضميري. لا، لا أريد أن أكون نصفَ شريف لأنّ كلّ ما لن أكون فيه شريفاً بالكامل سيشكلُ ضدي عاراً بالكامل. هه! هذه الأشياء واضحة جدّاً، ولا يوجد ما هو أوضح من الواجب.

أنخِلا–. إذا كان الأمر جهراً فلن تقبل الدوقة.

لورِنثو–. لن تقبل، هذا ما قلته.

أنخِلا–. آه، يا لورنثو، يا لورِنثو! أنت كلّ شيء: فيلسوف، عالم أخلاق، قانوني ومن المفروغ منه أنّك طيّب! كلّ شيء، كلّ شيء...، آلة تفكير بائسة، كلّ شيء، إلاّ الأب.

لورِنثو–. تريدين أن تذهبي بعقلي وستحقّقين ذلك.

أنخِلا–. ما عاد ذلك ممكناً.

لورِنثو–. أنا مجنون.

أنخِلا–. أنت كذلك وخذ بعين الاعتبار أنّك لم تصل إلى قاع الهاوية. اسمعني، فأنا أفهم قليلاً في موضوع المنطق: أنا في النهاية امرأة. هل ستقولُ الحقيقة، كلّ الحقيقة؟

لورِنثو–. كلّها.

أنخِلا–. للعدالة البشرية؟

لورِنثو–. يبدو لي من غير المجدي قولها للعدالة الإلهية، التي تُحاكمنا نحن الاثنين الآن.

أنخِلا–. افهمني، يا لورِنثو. أعني هل ستُكرِّرُ كلَّ ما حكيتَهُ لي منذُ

قليل للقاضي، للكاتب بالعدل، ما أدراني! وللذين عليهم أن يأخذوا كلَّ هذه الخيرات التي تتخلّى عنها ليسلموها إلى أصحابها.

لورنثو-. بلى إلى هؤلاء.

أنخِلا-. وهل ستحكي كلّ هذه القصّة؟

لورِنثو-. سيكون ضرورياً.

أنخِلا-. إذن، اسمعني جيّداً. سيكون عليك أن تقول إنّ هذه المرأة، مرضعتك خوانا، هي أمّك.

لورِنثو-. وبهذه الطريقة سأغسل العار الذي ألقى عليها بحكمه الظالم. سيكفي هذا وحده كي يصبح الصمتُ الذي نصحتني به جريمة.

أنخِلا-. ويكفي هذا كي يكون الصمت واجباً. ألا ترى أيّها الشقيّ، أنّه إذا كانت خوانا بريئة من الجريمة التي اتهمتْ بها، فإنّها متهمة بجريمة أكبر؟ اسمها انتحال حالة مدنية. تعرف هذا جيّداً. تزوير الأسرة وهذا يعني الهزء بها وتدميرها، انتزاع ثروة هائلة من أصحابها الشرعيين، والذي يعني أكثر من التقاط قلادة عن الأرض. التغطية على ولادة غير شرعية باسم شريف؛ وهذا يعني لف عفن الرذيلة بغطاء من فرو القاقم. إذا كانت خوانا أمّك فكلّ هذا من صنعها واستمرّت في شرّها أربعين عاماً.

لورِنثو-. *(منفصلاً عن أنخِلا وضاغطاً رأسه بين يديه.)* اسكتي، اسكتي، بالله عليك!

أنخِلا-. هذا ما أطلبه منك: اسكتْ!

لورِنثو-. إنّها أُمّي

أنخِلا-. وماذا يهمّ؟ من يُضحي بابنته فلماذا عليه أن يحترم أمّه المرتكبة؟ أليست القوانين الإلهية فوق القوانين الإنسانية؟ أليست العدالة والواجب والحقيقة هي الأَوّلى؟ ألا يجب أن تتغلّب قوانين الروح على ضعف اللحم؟

لورِنثو-. (هارباً من أنخِلا.) معك حقّ، ومع ذلك فأنت تهذين.

أنخِلا-. ولماذا؟ تتصوّر أنّك تتحوّل إلى سوقيّ وضعيف مثل هذه الأم المسكينة. ألا يتطلّب الواجبُ منك أن تترك ابنتك تموت؟ فلتمتْ؟ ألا يتطلّب أن تُجرجر أنت نفسك خوانا المُحتَضَرة إلى الزنزانة؟ فلتذهب العجوز الى الجحيم! ها أنتَ ترى أنّني أنا أيضاً أملك منطقي.

لورِنثو-. منطق الجحيم!

أنخِلا-. من أيّ كوكب علويّ هبط منطقك؟

لورِنثو-. *(هارباً من انخِلا.)* اتركيني...، اتركيني...، لا أستطيع أكثر! إنسٍ روحي، أمّاه!... بماذا أسأت إليك، يا أنخِلا، كي تُعذّبيني بهذا الشكل *(يمضي ليسقط واهناً في المكان الذي يلي الطاولة مباشرة.)* آخ، يا رأسي، رأسي يضطرم!

أنخِلا-. (بعذوبة.) لورِنثو!...، لورِنثو!...

لورِنثو-. بلى، أنت على حقّ...، بلى؛ فأنا معتوه بائس. ما أدراني ما يجب أن أفعل! كلّ شيء ظلمة! ما الحقيقة؟ ما الكذب؟

أنخِلا-. *(جانبياً.)* كنت قاسية جداً، لكنّني أنقذتُ ابنتي: لن

يتكلّم. *(دُن لورِنثو جالس، أو بالأحرى محطّم في الكرسي الكبير: يداه على الطاولة ويُخفي فيهما وجهه. تقترب أنخِلا منه بحنان وتكلّمه بعذوبة.)* لورِنثو، اعذرني!

لورِنثو-. اذهبي، بالله عليكِ اذهبي!

أنخِلا-. أردتُ أن أريك الجحيم الذي تسقطُ فيه، أن أنقذ إنِسّ، أن أنقذك من هيجانك ذاته.

لورِنثو-. بلى، يا أنخِلا، بلى، فهمتُ...، لكن اتركيني.

أنخِلا-. هل تغفر لي؟

لورِنثو-. أغفر لك وأُحبُّكِ. أنتِ أيضاً تُعانين. لكنّني أرغب بالمكوث وحيداً!

أنخِلا-. إذن، حسن، سأذهب. لكن لا تهن. سنبحث فيما بعد عن طريق للخلاص. سأقول لإنِسّ إنّك تريدُ أن تراها. ألا ترغب بضمّها إلى صدرك؟

لورِنثو-. *(بنبرة إذعان.)* إذا كانت تريد...

أنخِلا-. انتظرني هنا، سأعود لأناديك. وسترى كيف أنّنا هناك مجتمعون جميعاً حول ابنتنا المسكينة، تدفعنا الرغبة ذاتها، تجمعنا إرادتنا، سوف ترى أنت كيف سنقهر الشؤمَ الذي يحاصرنا.

لورِنثو-. *سنقهره...، بلى...، سنقهره... (مردِّداً ما يسمع دون أن يدري ما يقول.)*

أنخِلا-. وداعاً...، ولا تحنق عليّ.

لورِنثو-. أحنق! عليك!

أنخِلا-. وداعاً.

المشهد الخامس

دون لورِنثو جالس إلى الطاولة بمظهر إنهاك عميق. تضطرم المدخنة بنور ضارب للحمرة وتبدو الغرفة ملفوفة بظلال كثيرة تتكثّف بشكلٍ خيالي على الستائر.

وقفة طويلة

لورنثو-. ثمّ إنّني وحيد. كم من الظلال في كلّ مكان! ما أقلّ ما يلمع النور! هذا أفضل. فَلْتَنَمْ الظلمات: عليّ بالظلمة! ففيها يبدو لنا ضميرنا أكثر إنارة. أريدُ الخير، لكنّني لا أعرف أين هو. إرادتي صلبة، لكنّ عقلي مشوّش. ثلاثة أسماء تبرق أمام عينيَّ في هذا الليل الذي أرتجفُ فيه: أنخِلا وخوانا وإنِسْ! قدري يقودني إلى جلجلتي، فأصعدُ دون شكوى إلى صليبِ آلامي. لكن أنتنّ، لكن أنتِ، يا عزيزتي إنِسْ، لماذا عليكنّ أن تتقدّمنني لترسمن بدموعكنّ الطريق التي ستدمي قدميّ؟ أنا وحدي... ليكن ذلك، لكن أنتنّ لا. آهِ، يا إلهي نور ضميري ينطفئ وإرادتي تهون واليأس يتمكّن من روحي. أتوق إلى الخير وأبحثُ عنه فيكَ. يا ربّ، تعال إليّ، أناديك! أيّتها الأشباحُ التي تحيطُ بي، أيها الفضاء الذي أتقلّب فيه متألماً، أيّها الزمن االذي أنت بالنسبة إليّ كرباً أبديّاً، وأنتَ أيّها الصمت الجهم، الذي لغايةٍ رؤوم تصغي إليّ. أطلبُ منك جميعاً دعوةَ إلهكِ الذي لا يطاله صوتي! قولي له إنّني لا أريد لابنتي أن تموت وليبعد

عنها كأس العلقم ولأستنفد كلّ شيء بين شفتيّ! كلّ شيء لي! وليس لها! ما أجملها وأطيبها وأنقاها! هي لا! هي لا، لا يا إلهي! *(يترك رأسه يسقط على الطاولة ويبكي بمرارة. وقفة.)*

المشهد السادس

دُن لورنِثو وخوانا التي تظهر في الباب الأيسر وتتوقّف فيه.

لورنِثو–. خرقٌ من ظلالٍ مرّت أمام عينيّ. *(وقفة.)* هل هذا كلّه حلم؟ لا؛ فـخـوانا هناك في الداخل، والبـرهان...، البرهان... –(يفتح مكتب المذاكرة ويخرج ورقة.) البرهان على ذلك هي هذه. ليس حلماً للأسف. إنّه الواقع الرهيب الذي لا يرحم. قرأتُها مئة مرّة ولا أشبع من قراءتها. "أحببتُك كابن على الرغم من أنّك لم تكن ابننا..." على الرغم من أنّك لم تكن ابننا!

خوانا–. *(جانبياً وهي تراقبه.)* إنّه يقرأ...، يقرأ رسالةً من ظنّها أمّه. أمّه أنا، ليس غيري أنا. *(تتقدّم، وإن كان بجهدٍ، بعضَ الخطوات.)* كم من الحزن في جبينه! هل من دموع في عينيه؟ في عينيه؟ لا أدري. ربّما في عينيّ اللتين تنظران إليه. هي عنده أو عندي، فأنا أرى دموعاً في مكان ما. *(تخطو بعض الخطوات.)* هل يبكي؟ لماذا؟ ألأنّني أمّه؟ هل

سيشعر بأنّني أمّه. لكن ماذا يهمّه إذا كان لا أحد غيري يعرف السرَّ وأنا سأموت؟ بلى سأموت...، سأموت قريباً. فليل الأبدية البارد ينفذ إلى أعمق أعماق كينونتي، شيء في غاية السواد في داخلي. (*تخطو خطوة أخرى، تترنّح وتستند إلى الطاولة كيلا تسقط. يلتفتُ دُنّ لورِنثو إليها.*)

لورِنثو–. خوانا!

خوانا–. دائماً هذا الاسم!

لورِنثو–. أمّاه!

خوانا–. يزعجك أن أكون أمّك: أعرف هذا جيّداً.

لورِنثو–. أهكذا تظنينني!

خوانا–. إذا لم تنزعج فستخجل من أن أكون أمّك.

لورِنثو–. أخجل أنا؟ غداً سيعرف الجميع أنّني ابنك.

خوانا–. *(بذعر.)* غداً! ماذا تحاول ؟ متأخر صار سمعي وربّما لم أفهم ما قلته!

لورِنثو–. أسأتُ القول. غداً لا؛ من الأفضل أن تخرجي أوّلاً من إسبانيا وحين تصبحين في مكان آمن ، لأنّ عدالة البشر قاسية جدّاً أحياناً، سأنزع عنّي اسماً ليس لي، وسأعيدُ ثرواتٍ مغتصَبَة. هذا شيء منتهٍ.

خوانا–. يا يسوع حياتي!

لورِنثو–. وسنذهب بعد ذلك أنا وأنخِلا والمسكينة إنسٌ في طلبك.

خوانا–. أنت في الفاقة، أنت في العار، أنت دون أيّ اسم آخر غير الاسم المُضحك والملطّخ؟ لكن لماذا؟ لماذا؟ وما الذي يجبرك

على ذلك؟ تكلّم، يا بُني، فأنت تذهب بعقلي. من؟

لورِنثو-. ضميري وخطيئتكِ، يا أمّي.

خوانا-. لكن هل تفكّر بقول الحقيقة؟

لورِنثو-. لماذا قلتها لي؟ *(غاضباً.)* ما كنتُ لأعرف...، ولا لأسبّب الموت لابنتي.

خوانا-. لماذا؟ وتسألني؟ ولا تفهمه؟ يا لك من جحود! *(تُخفي وجهها بين يديها وتبكي بمرارة.)*

لورِنثو-. أمّاه!

خوانا-. لأنني سأموت... لأنّني سأموت، ويجب أن تعرف قبل ذلك ما فعلته هذه المرأة المسكينة من أجلِ سعادتك. ثُمّ إنّني أردتُ ولمرّة واحدة أن تناديني بأمّي. لهذا السبب وليس لسبب آخر. لأنّه كان هناك شيءٌ يصعد من قلبي إلى حنجرتي، يخنقني، ولم أستطِع في النهاية امتلاك نفسي واضطررت لقوله لك، أنتَ ابني!

لورِنثو-. أفهمك، يا أمّاه، ولا أتهمكِ.

خوانا-. لكنّك لا تفكِّر بعمل ما قلت، أليس كذلك؟ وإلا لكان عاراً على أسرتك ووحشية على هذه العجوز المسكينة!

لورِنثو-. وحشية بلى، لكن عار لا، فبهذه الوحشية أمحو عاراً آخر.

خوانا-. لورِنثو!

لورِنثو-. اغفري لي!

خوانا-. تقول إنّني ارتكبتُ عاراً؟

لورِنثو-. لا أقولُ شيئاً.

خـوانا-. لكن ذلك كـان من أجلكَ،... من أجلك...، من أجلك، يا بُني! *(بصوت هو في كلّ مرّة أكثر اختناقاً. يبقى دُن لورنثو صامتاً، جهماً ودون أن يلتفتَ إلى أمّه.)* لقد كان لأجله، يا إلهي، ويكافئني بهذا الشكل! لورنثو!

لورِنثو-. لا يمكن للشرّ أن يستمرّ؛ وعمل الجور ينهار تحت ثقله نفسه: تضحيتي سوف تمحو خطيئتكِ.

خوانا-. لورِنثو!

لورِنثو-. *(يقترب من النور يضع الرسالة في يدها ويجبرها على القراءة.)* ماذا تقول هناك؟

خوانا-. (تجلسُ وتقرأ بجهدٍ.) "اغفر لي وليلهمك الله الصبر!."

لورِنثو-. ، طيّب، يا أمّاه، لقد غفرتُ لها وطلبت إلهام السماء: توسّلاتك غير مجدية.

المشهد السابع

المذكوران وأنخِلا من جهة اليمين.

أنخِلا-. *(من الباب الأيمن ذاته ودون أن تدخل إلى الغرفة.)* يا لورِنثو، إنسٌ تُناديك!

لورِنثــو-. هي...! ابنتي...! ، بلى ذاهب... اعـذريني، يا أمّي! سأعودُ حالاً!

خوانا-. *(وهي توقفه ثمّ بصوت خافت.)* أعرف أنّك تحتقرني،

أعرف أنّك تكرهني...

لورِنثو-. أمّاه!

خـوانا-. (*ناهضـة.*) لكن ليس من أجلي، بل من أجلهـا، من أجل هذه الطفلة!

لورِنثو-. (*بقنوط.*) ولا حتى من أجلها!

خوانا-. آه! (*تسقط على الكرسي الكبير وتُغطّي وجهها بيديها. يخرجُ دُن لورِنثو وأنخِلا.*)

المشهد الثامن

تبقى خوانا والورقة في يدها.

خـوانا-.ولا حتى من أجلها! (*تُجهِشُ.*) ضحّي، يا خـوانا! من أجل ولدك، تنازلي عن مداعباته، اغرزي أظافرك في صدرك حين ترينه يقبّل امرأة أخرى ويناديها أمي، اشربي في داخلك دموع المرارة واجمعيها في قلبك إلى أن يطفح بها أو ينفجر، تلقي على جبينك علامة العار؛ استنفدي نفسك بالبؤس والألم في علّية عشرين سنة دون أيّة سعادة أو عزاء غير رؤيته يمرّ في عربته من بعيد! آه، يا إلهي، إنّني أموت! (وقفة، ثم تنتعش قليلاً.) أكثر... وأكثر... أنتِ، يا خوانا المسكينة، تعانين كلّ ما قلته ومع ذلك اجعليه غنياً، عالماً، شهيراً، طيّباً و... في ساعة الموت تقدّمي منه واطلبي منه مجرّد قبلة، متطلّعة كي يقول لك: " ما أطيبكِ، كم أحبَبْتِني!..."

وهو لن يقول لك أيَّ شيءٍ من هذا: سينظرُ إليك صارماً وحزيناً سيقول لك إنّك ارتكبت عاراً وإنّه من الضروري أن يمحو خطيئتك.... إنّ عملكِ...، ظلم!... آه، يا لورنثو، يا ولدي! لماذا أنت قاسٍ إلى هذا الحدّ؟ لماذا تلقي بازدراء كلّ ما منحته لك على حسابِ سعادتي؟ انظر كم يكلّف من دموع! *(تبدل نبرتها وتنهض باندفاع قانط وتأتي نحو اليمين.)* وتضحيتي كانت سداً هل خسرتُ سعادتي وخسرته أيضاً! بلهاء، أنانية! لماذا قلت له الحقيقة؟ *(وقفة.)* يجب ألا يحدث، يجب ألاّ يحدث! سأنكِرُ كلَّ شيء. عمل الظلم ما زال لا يهدّد بالخراب، ياله من مدّعي رؤيا مسكين! سأنكره! *(بصوت منطفئ.)* سيكون سعيداً وغنيّاً وقويّاً على الرغم منكِ. هو وضع بين يديّ البرهان الوحيد. *(مادّةً يدها إلى الطاولة حيث الورقة.)* حسن، حسن، سيُنقَذُ بالعمل بين أمّه وابنته: مصادفة غريبة! هي، بدعوتها له ستجبره على الابتعاد وأبقى أنا... هيّاً. لنستنفد ما تبقى عندي من قوّة. الآن أقترب شيئاً فشيئاً وبين الظلال.. هكذا كانت ظلمة تلك الليلة التي جاء فيها سيّدي يبحثُ عنّي في فراشي وهمس في أذني: "أريدُ لابنكِ أن يكون غنيّاً وسعيداً" وأنا تردّدتُ... ثمّ قلتُ نعم... والآن... والآن أقول نعم *(تصل إلى الطاولة. وقفة.)* هل يعود لورنثو *(مصغيةً)* نعم، يبدو لي أنّه يعود! وسيطلبُ مني الرسالة كما طلبها من قبل! هيّا... إلى النار... *(تريدُ أن تسير، لكنّها لا تستطيع.)* أسمع صوته... تخونني قواي... ليس عندي وقت!... سيأتي! لا ...، لن أعطيها له، إنها مرّة أخرى رهن إرادتي... آه! أعرف... أعرفُ...

سأضعُ في الظرفِ ورقة بيضاء كيلا يلاحظ شيئاً... *(وهي تنفّذ العملية التي أشارت إليها توّاً.)* يسميها لورِنْثو ظلماً! مسكين ابني، البريء أحياناً مثل طفل! هكذا...، هكذا...، أتركه حيث كان وهذه إلى النار. *(تلقي بالورقة إلى النار وتنحني لتراها تشتعل.)* صارت لهباً! وهجها يضيء وجه سيدتي القديمة. *(وهي ترى صورة على الجدار.)* انظري، انظري، صارت رماداً وكانت البرهان الوحيد. الوحيد؟ لا: هناك آخر، ما زلتُ موجودة. لكن سرعان ما سأصير رفاةً أيضاً. *(وقفة.)* سأذهب إلى غرفتي. *(تخطو عدّة خطوات.)* يا إلهي، تنقصني القوّة *(تقوم بجهدٍ وتتقدّم عدّة خطواتٍ أخرى.)* لكنّني أنقذته...! سيكون غنيّاً...، سعيداً... لا أرى...، لا أرى... هذا النور ينطفئ... ينطفئ هو أم عيناي؟ *(تقترب من الطاولة، تأخذ الشمعةَ وتحاول أن ترحل من جديد.)* نور!... نور!... أين غرفتي؟ ظلال!... كلّ شيء ظلال! يا ويلتي! يا إلهي!... لا أستطيع...، لا أستطيع! *(تترك الشمعة تسقط، تبقى الغرفة لا يضيئها غير انعكاس وهج المدخنة الضارب إلى الحمرة. وتسقط هي أيضاً بين المدخنة والطاولة.)*

المشهد التاسع

خـوانا، دُن لـورنثـو، إنِس، أنـخِـلا والدوقـة. الأربعـة الأخيرون إلى اليمين. يدخل دون لورنثو وكأنّه يهرب من ابنته، تتوقّف هي في الباب. تأتي مرتدية الأبيض وخلفها أنخِلا والدوقة شبه مختفيتين بين الستائر.)

لورنثو-. *(يأتي إلى وسط الخشبة.)* لا أكثر! لا أكثر! أنّه البرهان الأخير، نعم الأخير لكن، آه، إرادتي تتردّد.

أنخِلا-. *(جانبياً إلى إنِسّ.)* الحقي به، لا تتركيه: سيذعن.

إنِسّ-. لماذا تهرب منّي، يا أبتِ؟ *(وهي تتقدّم عدّة خطوات، قليلة جدّاً وخلفها أنخِلا والدوقة. من الضروري إضفاء جوّ الخيال على هذا المشهد الموجود فيه أصلاً، كي ينطبق التأثير على فكرة المسرحية. دُن لورنثو في وسط مقدّمة الخشبة مظهراً بموقفه وحركاته التي تؤكّد آخر صراع يائس له مع نفسه، تقترب إنِس جميلةً وشاعرية ببطءٍ من أبيها، وتتبعها دائماً أنخِلا والدوقة اللتان ترتديان السواد موحيتان لها بكلّ ما تقوله. خوانا تُحتَضَر. تلفّ المكتب ظلال كبيرة، انعكاس المدخنة ينير إنِس كاملة.)*

لورنثو-. هوذا الإغواء هناك! لكن ما أجملها! يا للهالة الإلهية التي تحيط بها. النور الوحيد بين كلّ هذا الظلام!

أنخِلا-. *(جانبياً إلى ابنتها.)* هل ترينه؟ ما عاد يستطيع المقاومة...

ارجيهِ... ارجيهِ، يا عزيزتي إنِسْ!

انِسْ-. *(تتقدّم.)* تعالَ إلى ذراعيَّ!

لورِنثو-. *(متراجعاً. وجانبياً.)* يا ويلتي إذا ما لفّتهما على عنقي كأنشوطة غاية في النعومة!

خوانا-. *(جانبياً وبصوت مطفأٍ.)* أنشوطة حول العنق... معه حقّ...

إنِس-. بالله عليك يا أبي، بحبّك لي، بحقّ دموع هاتين العينين اللتين طالما أحببتهما وقبّلتهما حين كنتُ طفلة! *(ترفع يديها إلى خديها ثم تسحبهما وتقدمهما لأبيها كي يقبلهما).*

انظر، انظر كيف تنفصل عن أهدابي. أخذتها أصابعي حين سقطت، قبّلهما وستشعر بمرارتها في شفتيك.

لورِنثو-. بلى، سأقبلهما... سأقبلهما...، لكن آه لو سقطت واحدة من دموعي في دموعك!

خوانا-. تسقط؟ هل قال تسقط؟ أنا أيضاً أسقط في هاوية لا قاع لها! لكنّني أريدُ قبل ذلك، أن أعانق ابني!

إنِسْ-. أبي! *(يتراجع دُن لورِنثو، تتبعه إنِسْ وأنخِلا والدوقة.)*

أنخِلا-. لورِنثو!

خوانا-. *(متقدّمة.)* قالوا لورِنثو... هناك...، هنالك...، أرى شيئاً...

لورِنثو-. لا...لا... أقول ألف مرّة لا... تريدون أن تجعلونني سافلاً!

إنِسْ-. وأنت يا أبي، من كان سيظنّ ذلك! تريد موتي! وإلا فلماذا

تعارِض هذا الحبّ الذي هو حياتي؟

لورِنثو-. أنا، يا إنِس حياتي!...، لا ...، الدوقة... الدوقة.

أنخِلا-. ليس صحيحاً، الدوقة أذعنت.

لورِنثو-. مقابل الشرف.

الدوقة-. ليس صحيحاً، يا إنِسُ، بل مقابل الصمت.

إنِسُ-. ألا تسمع، يا أبي؟

لورِنثو-. *(منفصلاً عنهنّ، ورافضاً لهنّ ومتراجعاً.)* فقط أسمع أصواتاً تطالبني بالضمير!... فقط أرى أشباحاً تلاحقني!... من الفضاء، مسوخ الإغواء...، اتركيني... اتركيني حيّاً بحق الله! فإذا كنت قويّة في تعذيب قلبي، فإنّك ضعيفة، ضعيفة جدّاً كي تستطيعي ليّ إرادتي!

خوانا-. *(وهي تصل إليه وتعانقه.)* صوته! لورِنثو!... لورِنثو!...

لورِنثو-. *(وهو يُعانقها أيضاً.)* أمّاه!

إنِسُ-. *(لائذة بأنخِلا.)* ما هذا الصوت؟ من تكون هذه المرأة؟ أيّ شبح ينبثق من الظلام ويلفّ أبي بذراعيه؟ أنا خائفة!

لورِنثو-. خوانا!... أمّاه!

إنِس-. أمّه! لماذا يناديها أمّي؟

لورِنثو-. لأنّها أمّي ولأنّ عليّ أن أقولها.

خوانا-. أنا! أنا أمّك! يا للمسيح ما هذه الفكرة! كم بودّي... لو أكون!

الدوقة-. هل سمعت، هل سمعت ما تقول؟

أنخِلا-. تتكره!

لورِنثو- . *(بعنفٍ.)* بل أنت كذلك!

خوانا- . *(بضحكة مكرهة.)* آه، مسكين عزيزي لورِنثو! (على أذنه وهي تُعانقه.) يا فلذة روحي!

لورِنثو- . بحياتك ردّدي بصوتٍ عالٍ ما همست لي به في أذني!

خوانا- . أنا همستُ في أذنك؟... إذن ماذا قلتُ لك؟ إنّني أمّك، أيّة سعادة أكبر من هذه!

لورِنثو - . *(بحنق.)* آه!... أوتتكرين؟

أنخِلا- . لورِنثو!

لورِنثو- . *(بحنق أكبر.)* أتتكرين أنّك أمّي؟

خوانا- . وكيف لا؟!

لورِنثو- . *(بقنوط رهيب.)* تنكّرتِ لي حين وُلِدتُ وتتنكّرين لي ساعة موتك!

خوانا- . *(تعانقه فيشكلان كتلة متحدة تماماً، من المحال في الظلمة معرفة ما إذا كانا يتعانقان أم أنّ لورنثو يشدّها إليه بسبب حنقه.)* يا ابن أحشائي! (بصوت مُحتَضَر في أذنه.)

لورِنثو- . (صار هاذياً.) هذا... هذا!

خوانا- . أنا أموت!

لورِنثو- . لا... يا أمّي!

الدوقة- . (تجري نحو الباب الأيمن.) يا يسوع ألفَ مرّة! هذا الرجل سيقتلها!... النجدة!

أنخِلا- . إدواردو!... توماس!

لورِنثو- . أمّاه!... أمّاه!

خوانا-. لا... يا إلهي... هذا لا!

المشهد العاشر

دون لورنثو، إنِسْ، أنخِلا، الدوقة، دُن توماس وإدواردو. الأخيران إلى اليمين مع أنوار والجميع يُهرعون ويحاولون أن يفصلوا دُن لورنثو عن خوانا.

توماس-. هيا!... هيّا!...

لورِنثو-. أماه! غفرانك! لن أناديك أماه إن كنتِ لا تريدين... أمّاه!

خوانا-. و...داعاً...

لورِنثو-. خوانا! *(تجهد خوانا جهداً رهيباً، تنهض وكأنّها مجروحة في قلبها من اسم خوانا وتسقط.)*

توماس-. ميتة!

لورِنثو-. لا...، غير ممكن! *(يُعانق أمّه.)* ناديتها أمّي كي أقتلها! وآخر صرخة سمعتها من شفتيَّ كانت خوانا! آه، يا إلهي! يا إلهي! لماذا تعاقبها بهذا الشكل ولماذا تتخلّى عنّي؟

ستار

الفصل الثالث

ديكور الفصلين السابقين ذاته

المشهد الأوّل

دُن توماس؛ ثمّ الخادم.

توماس-. كلّ شيء ساكن. لا يسمع لا حتى نحيب إنسٍ ولا زمجرة غضب لورِنثو. سكينة سابقة على عاصفة جديدة. *(وقفة.)* هناك لحظات أرتاب فيها وأتردّد. هو...، هو...، صديقي الطيّب، لورِنثو العزيز... هذه الفكرة لا تتركني أرتاح. في النهاية سنعرف الحقيقة، لاحقاً جدّاً سنعرفها، خلال ذلك يجب التمتع بالبأس ولنقم تجاه هذه الأسرة المكروبة بالواجبات المقدّسة التي لا أحد يقوم بها برغبة أشدّ من رغبتي.

الخادم-. سيّد يرافقه اثنان... لا أدري ما إذا كان كذلك... لكنّ بزّته... على كلّ أعطاني هذا السيّد هذه البطاقة لك، وهم ينتظرون جميعاً في الخارج.

توماس-. *(وهو ينظر إلى البطاقة.)* آه، الدكتور بِرمودِثْ! ليدخلْ، ليدخل!

الخادم-. والاثنان الآخران؟

توماس–. لينتظرا *(يخرج الخادم.)* كلّما اقتربت اللحظة زادت لهفتي وشكوكي. مسكينة أنخِلا! يا لها من ضربة!! مسكينة إنِسّ! في أيّة حال من اضطراب الأعصاب هي، الفتاة البائسة! أيّ بريق في نظرتها! أيّ وضوح في آرائها. لا أحد وضّح لها ما يجري... وأنا أعتقد أنّها تعرف كلّ شيء؛ وتتكهّن بما لا تعرف. لا ، لا يمكن لهذه الحالة أن تستمرّ أكثر، لنواجه الواقع مهما كان حزيناً.

المشهد الثاني

دُن توماس والدكتور برمودِث، ثمّ ممرضان في مشفى المجاذيب، بلباس محتشم، لكن مظهرهما وسلوكهما لا يعكسان ما يبدوان عليه.

توماس–. *(وهو يخرج للقائه ويمدّ له يدَهُ.)* دكتور!

الدكتور–. دُن توماس!

توماس–. دقيق الموعد كعادتك.

الدكتور–. لا، فقد جئت مبكّراً قليلاً...؛ كي أُأمِّن على هذين بالشكل المناسب...

توماس–. نعم، نعم، فهمتُ.

الدكتور–. جعلتهما يأتيان بطريقة لا تسمح لدُن لورِنثو بالشك، لأنّ الأمر يتعلّق باحتياطات عامّة...

توماس- . نعم، نعم، حسن. من الضروري التحرّك بحكمة. نوبة هياج، نوبة هياج حقيقيّة، كما قلتُ لك، فقد أصابته مرّة واحدة، الليلة السابقة. يمكن أن أكون قد أخطأت.

الدكتور- . سيسرّني ذلك...، وسيسرّك أنت أيضاً كثيراً.

توماس- . آه، يا صديقي، أنا في حالة لا أدري فيها ما يجري! على كلٍّ حال علمك وخبرتك وبصيرتك العميقة ستخرجنا من الشكّ.

الدكتور- . أنت تجاملني كثيراً! فبوجودك...

توماس- . لا تأخذني بالحسبان، يا دكتور، فأنا لا أنفع. المسألة تتعلّق بأفضل أصدقائي، بأخي تقريباً. ثم إنّه بدا لي دائماً... أنت تعرف مدرستي: فبين العقل والجنون لا يوجد خطّ فاصل.

الدكتور- . طبعاً، طبعاً؛ وجميع العلماء عندهم شيء من...

توماس- . تماماً: هياج العقل يتجاوز بعض الحدود و...

الدكتور- . بالضبط. سنرى، سنرى ما يمكن أن نفعل من أجل دُن لورِنثو. بطريقة يقوم بها هذان الشابان...

توماس- . سيكون من السهل اختراع أيّة قصّة: شاهدان... أو يمكن أن يُقال له إنّهما قادمان مع الكاتب بالعدل... أيّ شيء. ليس المسكين في حال يسمح له بالتوقّف عند هذه التفاصيل.

الدكتور- . وأين ينتظران؟

توماس- . *(وهو يشير إلى الباب الأيسر.)* هناك في الداخل.

الدكتور-. *(وهو يطلّ على العمق.)* هيه! براوليو *(يدخل المرضان، منكمشين قليلاً ويظهران في حركاتهما الفظّة والمرتبكة طبيعتَهُما.)*

توماس-. ادخلا إلى هذه الغرفة، وسنخبركما إذا دعت الحاجة إليكما، وابقيا خلال ذلك دون حراك. *(يسلّم المرضان ويدخلان من اليمين.)* منذ أن ماتت خوانا لم يدخل لورنثو إلى هذه الغرفة. *(إلى بِرّمودِث.)* إذا أغلقنا الباب... (يغلقه.)

الدكتور-. (وهو ينظر إلى الساعة.) سأعود حالاً، سأكون هنا قبل أن يأتي الكاتب. أنا ذاهب... إنّه قريب...

توماس-. زيارة؟

الدكتور-. حالة جنون جميلة. *(تدخل أنخِلا من العمق وتتوقّف حين ترى بِرمودِث، إلى دُن توماس مشيراً بنظرته إلى أنخِلا.)*

توماس-. نعم، الزوجة. لا تتكلّم معها.

الدكتور-. *(إلى دُن توماس جانبياً.)* إلى اللقاء، يا سيّدة... *(يخرج من مؤخرة الخشبة وهو يحيي.)*

المشهد الثالث

أنخِلا ودُن توماس. تلاحقُ أنخِلا برمودث بنظرتها، تنظر بعدها إلى الغرفة التي دخل إليها الممرضان.

أنخِلا-. من هذا الذي خرج؟ ومن الرجلان اللذان جاءا معه؟

توماس-. اهدئي، يا أنخِلا. كلّ شيء سيسوّى. هذه إجراءات احتياطية، لكنّها ضروريّة، لأنّه، من يدري؟ قد تأخذ دُن لورِنثو نوبةُ هياجٍ جديدة كما في الليلة السابقة، ولأجلكما وأجله...

أنخِلا-. لا، يا توماس؛ لا تقُلْ هذا.

توماس-. ألا تذكرين، يا أنخِلا بأيّ احتدام شدّ إليه جسد المسكينة خوانا المحتضر؟ الآن ولا أحد يسمعنا، أنا أظنّ بثقة أنّه... كان... السبب الحاسم...

أنخِلا-. توماس! توماس!

توماس-. على الأقل عجّل في موتها. ألم تري أنّه كان يتهم نفسه في هذيانه؟ لا نبتدع أوهاماً: كانت نوبة حقيقية من ...

أنخِلا-. (باكية.) لورنثو! عزيزي لورنثو!

توماس-. والأزمة يمكن أن تعاوده، لأنّه اليوم...

أنخِلا-. نعم، أعرف ما ترمي إليه... آه، يا توماس، ما أتعسنا! ما أتعسك يا عزيزي لورِنثو!

توماس-. ماذا يفعل الآن؟

أنخِلا-. هادئ جداً: يكتب، يمشي...، يريد أن يكون مع إنسٍ ومعي وكأنّ الوحدة تُخيفه. منذ قليل نظر إليّ بحزن، لكن بودٍّ، قبّلني على جبيني وقال لي: "مسكينة أنتِ يا عزيزتي أنخِلا!"

توماس-. لا تعارضيه.

أنخِلا-. لا ، يا سيّد، نحن نوافقه على كلّ شيء.

توماس-. وهل ما زال على عناده؟

أنخِلا-. آه، نعم، يا سيّد! يسأل من حينٍ لآخر كم الساعة: يقلق لأنّ الكاتب لم يأتِ ويتمتم بصوتٍ أصمّ: "شرّ يلقي بظلّه على العالم كلّه. عليّ أن أقوم بواجبي."

توماس-. أيّ رجل! أي مزاج!

أنخِلا-. يا توماس، بالله عليك لا تخدعني! هل تعتقد أنّ لورِنثو...؟ لا أستطيع، لا أستطيع أن ألفظ هذه الكلمة!

توماس-. أنا لا أعتقد شيئاً حتى الآن. سنرى، يا أنخِلا، سنرى، يا صديقتي الطيّبة. لقد جئت بالدكتور برمودِث طبيب الأمراض العقلية الفريد، للخروج من هذا المأزق المرعب كلّياً.

أنخِلا-. لكن هذا مُحال!... أقول محال!

توماس-. ليتك تكونين على حقّ، علينا ألاّ نفقد الأمل، لكن مُحال؟... آه، العقل الإنساني شيء ضئيل!...

أنخِلا-. (بقنوط.) آه، يا زوج روحي!... لا، لا أريد. يجب ألا يكون ذلك.

توماس–. هيّا، عليك بالتعقّل والشجاعة، من أجل تلك الطفلة المسكينة، على الأقل من أجل إنِسّ. ومن يدري حتى الآن. سنرى التوضيحات التي سيقدّمها لورنثو، ما البراهين التي سيقدّمها.

أنخِلا–. ما البرهان الذي على البائس أن يقدّمه، إذا كنتُ سمعتُ خوانا المُحتَضَرة نفسها تردّدُ: "لا...، لا...، لستَ ولدي"؛ بينما هو محتدم، هاذٍ، يشدّها بين ذراعيه جاهداً أن ينتزع من ذلك الجسد الذي كان يُحتَضر، شبه ميت، اعترافاً، مستحيلاً يناديها "أمّي!" بصرخة الجنون المدوّية. لا تواسِني، يا توماس: لا جدوى، أنا أعرف أنّ شفاءنا حتميّ.

توماس–. أخاف هذا جدّاً.

أنخِلا–. وما تلك الطريقة في استقبال الدوقة؟ هو، المُهذَّب دائماً، الرقيق دائماً...

توماس–. معكِ حقّ: في ذلك اليوم فهمتُ كلّ شيء؛ لكن لا أحد يستسلم حين يُباغته الشؤم.

أنخِلا–. ثم وهو يعبد ابنته بالطريقة التي يعبدها، من يفعل ما يفعله هو اليوم؟

توماس–. لا أحد، يا أنخِلا، لا أحد، ما لم يكن قد فقد عقله.

أنخِلا–. وأنت هل قلت لبِرّمودِثّ...؟

توماس–. كلّ شيء، لا: لو فعلت لكان شيئاً خطيراً، لكن ما يكفي كي يعطينا رأيه.

أنخِلا–. وما هو؟

توماس- . عليّ ألاّ أخفي عنك...

أنخِلا- . غير مُجدٍ، يا توماس، غير مُجدٍ!... فأنا أعرف جيداً أنه ما من علاج!...

توماس- . باتباع نظام جيّد، بفصله عن أولئك الأشخاص، الذين ولأنّهم عزيزون عليه جداً يثيرون حساسيته المفرطة باستمرار...

أنخِلا- . توماس!

توماس- . في مكان ما في إسبانيا أو الخارج...

أنخِلا- . ماذا...، ماذا...، ماذا تريد أن تقول؟... فصله عنّا؟... حمله! هو...، هو...، لا، ولا بشكلٍ من الأشكال! أنا زوجته! لا أرضى!

توماس- . وجود إنسٍ يُثيرُ هذيانه.

أنخِلا- . وغياب ابنته يعني موته.

توماس- . خنق بين ذراعيه تلك المرأة المسكينة.

أنخِلا- . لا، يا توماس، لا، ليس معك حقّ في هذا: لا خطر على إنسٍ بين ذراعي لورنثو، إنّها ابنته!

توماس- . وكان يفكّر أيضاً أنّ خوانا أمّه.

أنخِلا- . لا يا توماس، لا يمكن. لماذا لا تبحث عن التخفيف من عذاباتي بدل أن تمرمرني؟

توماس- . أنخِلا!

أنخِلا- هذه حقيقة، يا صديقي العزيز، ليس من السهل إيجاد عزاء لألمي!

توماس-. العزاء موجود في كلّ ألم بشري، مهما عظم.
أنخِلا-. إلا في هذا.
توماس-. في هذا أكثر منها جميعاً، وإلاّ فلنناقشْ بدمٍ بارد.
أنخِلا-. وكيف إذا كان الدمُ يحرق عروقنا.
توماس-. اسمعيني. وماذا إذا كان ما يؤكّده لورِنثو حقيقة؛ إذا قدَّم البراهين الحاسمة...
أنخِلا-. عندئذٍ لا يكون لورنثو قد فقد عقله بل نحن عميان وطائشون. آه، يا للسعادة عندئذ!
توماس-. ليس إلى هذا الحد، لأنّ الفاقة والعار والموت سيكون بانتظاركم...
أنخِلا-. اسكت، يا توماس!
توماس-. وأقول الموت، إضافة إلى الفاقة، لأنّ أنخِلا ستموت. بالمقابل إذا كانت فاجعة لورنثو صحيحة...
أنخِلا-. لا تتابع... لا أريدُ أن أفكِّر بهذه الأشياء...
توماس-. فكّري بإنِسّ، واعلمي يا أنخِلا، أنّ هذه الجراح رهيبة، نعم، وإن كان محزناً قول ذلك لكن يجب الاعتراف به؛ ليست قاتلة، فالقاتل بالنسبة للشباب هو تدمير المستقبل وليس ما يسقط في العدم مما حدث.
أنخِلا-. بالله عليك، يا توماس!...
توماس-. بفاجعة لورِنثو تتعلّق سعادة إنِسّ. علينا ألاّ ننسى ذلك.
أنخِلا-. لتكن مشيئة الله. لكن لا توقظ عندي أفكاراً ترعبني أكثر ممّا تواسيني.

المشهد الرابع

المذكوران ودُن لورنثو من جهة اليمين.

لورِنثـو-. *(جـانبـيّـاً.)* لكن أين تركتُ المفـتـاح؟ يا لهـذا الرأس!... والكاتب سيأتي باكراً جداً. وفي طاولة المذاكرة تلك تركت الرسالة، أتذكّرُ ذلك جيّداً؛ نعم...، منذ يومين...، عندما قامت أمّي...

تومـاس-. *(دونَ أن يرى دُن لورنِثـو.)* مسكينة أنخِـلا! رهيب البرهان!

لورِنثو-. *(بقلق وهو يبحث عن المفتاح على الطاولة.)* كيف؟... ماذا يقولون؟ البرهان، بلى كانوا يتكلّمون عن البرهان!

أنخِلا-. رهيبٌ، رهيب السـيـر بين هوّتين... لورِنثو في جانب... إنِسٌ في آخر...، معك حقّ.

لورِنثو-. (بغضب وصوت عال.) لقد أضعته!

توماس-. *(وهو يعود، جانبيّاً.)* شقي! أظنّ ذلك!

أنخِلا-. لورِنثو!

لورِنثو-. *(بنظرة حذرة وكأنّه لم يرهما.)* آه، هل أنتما هنا؟...

أنخِلا-. *(بعذوبة.)* عمَّ تبحث؟... نحن سنساعدك.

لورِنثو-. أنتم؟... لا. لماذا؟ أنا وحدي!

أنخِلا-. لكن قُلّ على الأقل ماذا أضعت!

لورِنثو-. كلّ شيء؛ حتى حبّ أهلي. تصوري إن كان بمقدوري أن

أضيع أكثر من ذلك!

أنخِلا- . لا، يا لورنِثو، لا تصدّق.

لورنِثو- . أخيراً ...، المفتاح... شكراً للسماء! *(جانبياً وبعدم ثقة.)* ها قد دخل... هل قد دخل... *(يفتح بلهفة الطاولة ويأخذ الطلحية التي تركتها خوانا.)* آه، هاهي!... لقد انزاح حمل عنّي!... *(يقرأ.)* " إلى لورنِثو." هذه هي الورقة.

أنخِلا- . *(وهي تقترب.)* هل وجدت ما كنتَ تبحث عنه؟

لورنِثو- . نعم. *(يقترب دون توماس أيضاً.)*

أنخِلا- . ما هذه الورقة؟ (كان دُن لورنِثو يتهيّأ لإخراج الورقة من الظرف لكنه يضعها في طاولة المذاكرة حين يرى أنخِلا وتوماس يقتربان، يغلق بالمفتاح ويخبّئه).

لورنِثو- . شيء مهم جدّاً. *(بشيء من عدم الثقة وهو ينظر بحذر.)* لماذا تريدان أن تعرفا؟

أنخِلا- . لا تغضب، يا عزيزي لورنِثو. اعذرني إذا كنت غير لبقة.

لورنِثو- . أنا أعذر؟ أنا من يحتاج لعذركما. بسببي، بسبب خطيئتي ستصبحان شقيّتين!

أنخِلا- . لا تقُلْ هذا لن نصبح كذلك ما دمتَ سعيداً.

لورنِثو- . وأنا هل أستطيع أن أكون كذلك؟، ما لم تكوني أنت سعيدة، ما لم تكن إنِس حياتي كذلك؟

أنخِلا- . ستكون أيضاً.

لورنِثو- . محال، إذ هل تدرين ما هو تفكيري؟

أنخِلا- . شرحته لي. ألا تذكر؟

لورِنثو–..*(إلى دُن توماس.)* وأنت؟

توماس–. أيضاً.

لورِنثو–. وتوافقان؟

أنخِلا–. *(بعذوبة.)* كلُّ ما تقوم به أنت حسنٌ.

لورِنثو–. *(إلى دُن توماس.)* وأنت ماذا تقول؟

توماس–. الشيء نفسه.

لورِنثو–. الشيء نفسه! *(متفكّراً.)* ياللقناعة! هل تعلمان أنّني طلبت كاتباً؟

أنخِلا–. نعرف.

لورِنثو–. *(وهو ينظر إلى الاثنين.)* تعرفان. وهل تعرفان أنّني سأجعلهم يسجلون تصريحاتي وتنازلي؟

أنخِلا–. بلى، يا لورِنثو.

لورِنثو–. كي يتخذ القاضي إجراءاً بما تقدّم. أليس كذلك؟

توماس–. شيء طبيعيّ!

لورِنثو–. *(إلى أنخِلا.)* وأنتِ، ما قولك؟

أنخِلا–. *(بصوت باكٍ)* إذا كانت الخيرات التي نتمتّعُ بها اليوم لا تعود إليك...، حسناً تفعل.

توماس–. إذا كان الاسم الذي تحمله ليس لك، فمن الضروري أن تتخلّى عنه.

أنخِلا–. على كلّ حال مشيئتك قانون.

لورِنثو–. لكنّه قانون طاغ وكافِر! أليس صحيحاً؟

أنخِلا–. قانون أحترمُهُ كأفضل قانون.

لورِنثو-. *(قلِقاً، عصبياً، شبه مثار.)* ولا تقاومينه؟ لا تعارضينه؟

توماس-. سلوكك سلوك رجل نزيه... وبذلك لا تستطيع أن تفعل شيئاً آخر.

لورِنثو-. *(بعنف.)* يا له من خضوع غير معقول! يا لها من وداعةٍ غريبة! يا له من تبدّلٍ مفاجئ! تكذبان عليّ.

أنخِلا-. لورِنثو، أعوذ بالله!

توماس-. *(جانبياً.)* لا أمل! الجنون يهاجم دماغه مثل موجة سوداء.

لورِنثو-. (هادئاً.) في النهاية هذا أفضل. (وقفة. برقّةٍ وهو يقترب من أنخِلا.) أينَ إنِسّ؟

أنخِلا-. مسكينة ابنتي!

لورِنثو-. ألا تدافعين عنها ضدّي؟ ومع ذلك فهذا واجبك. *(بعذوبة.)*

أنخِلا-. آه، يا لورِنثو! الذي تستطيع فعله ضدّك هذه المرأة المسكينة. إرادتُكَ تقوى في الصراع وفي الفاجعة وإرادتي تذعن حتى تقبيل الغبار.

لورِنثو-. معكِ حقّ: فإرادتي لا تُقاوَم حين تستلهم الواجب *(إلى دُن توماس.)* وماذا تقول عن كلّ هذا؟

توماس-. هكذا سيكون.

لورِنثو-. هكذا. *(وقفة.)* مسكينة أنخِلا!... وهل تدري ماذا سنفعل بعد توقيع المحضر وتسليم الدليل؟

توماس-. وهل عندك البرهان؟

لورِنثو-. ألم تكن تعرف؟ *(جانبياً، باستغراب.)* عنه كنتما تتكلّمان حين دخلتُ. *(بصوتٍ عالٍ.)* . بلى، عندي، جليّ لا يُدحض، بَيِّنٌ مثل النور مع أنّه أسود مثل الليل والخيانة.

أنخِلا-. اهدأ، يا لورِنثو.

توماس-. وما هو؟

لورِنثو-. رسالة من أمّي...، من تلك التي كانت تُدعى أمّي.

أنخِلا-. يا إلهي، تراها حقيقة؟

لورِنثو-. بتوقيعها وخطّها... وها هي هنا في حوزتي.

توماس-. *(جانبياً.)* آه، إذا كان كذلك...

لورِنثو-. حسن، بعد تقديم البرهان، *(إلى أنخِلا.)* سنخرجُ أنا وأنتِ والمسكينة إنِسْ من هذا البيت على الفور... من هذا البيت الذي لن يعود ملكاً لنا، والذي ستضع العدالة يدها عليه اليوم بالذات إلى أن يأتي ورثة أبنْدانيو (يتحمّس تدريجياً.) بينما سنذهب نحن وحيدين وقانطين، بلا إمكانات ولا اسم، نحمل بين ذراعينا ابنة مُحتَضَرة، لأنّ إنِسْ ستموت، أنت تؤكّد لي ذلك *(إلى توماس.)*... لا. أسأت القول. كفرتُ. سنذهب بكامل شرفنا، وبضمير مرتاح وجبين عالٍ ومعنا الله. ما همّ أن يتخلّى عنّي الجميع إذا كان الله معي؟

أنخِلا-. إرادتك قانون يا لورِنثو... *(تعانِقه.)* من قبل نطقت بها شفتاي والآن ينطق بها قلبي.

توماس-. *(جانبياً.)* إذا كان البرهان موجوداً... فهذا الرجلُ

قدّيس. لكن آه، إذا لم يكن موجوداً، فلورِنثو المسكين سيكون مجنوناً.

الخادم–. *(معلناً.)* السيّدة الدوقة والسيّد إدواردو.

أنخِلا–. ليدخلا. *(إلى دُن توماس.)* هل أنت من أخبرهما؟

توماس–. تكلّمتُ معهما ليلاً. وعدتني الدوقة بالمجيء، وها أنتِ ترين، تفي بكلمتها.

لورِنثو–. عليّ ألاّ أراهما... أريدُ أن أبقى وحيداً...، أو معكما...، فقط، وداعاً... يا عزيزتي أنخِلا.

أنخِلا–. وداعاً، يا لورِنثو.

لورِنثو–. *(وهو ينظر إلى الساعة.)* ما أبطأ الوقت! *(يتوجّه إلى الباب الأيمن. يرافقه دُن توماس.)* هل أخبرت الشهود؟ *(عندما يصل إلى الباب.)*

توماس–. هناك اثنان ينتظران الآن، وآخر سيأتي فيما بعد.

لورِنثو–. من يكونون؟

توماس–. لا تعرفهم: إنّهم أصدقائي.

لورِنثو–. وأصدقائي، لماذا لا؟

توماس–. فكّرت بأنّ أصدقائي أصدقاؤك.

لورِنثو–. *(ينظر إليه برهةً.)* وهم كذلك. *(جانبياً.)* آه، يا لهذه الموافقة!... وددت لو يعارضاني...، يصارعاني!...

المشهد الخامس

أنخِلا، الدوقة، إدواردو ودُن توماس

أنخِلا-. السيّدة الدوقة...

الدوقة-. (وهي تحييها بمودّة.) سيّدة!

أنخِلا-. دائماً في غاية الطيبة معنا!

الدوقة-. لا أستطيع أن أنكر عليك، في مرحلة بهذه القسوة، عزاءَ صداقةٍ حقيقيّة. أراد الله أن تجرحنا الفاجعة ذاتها بطرقٍ مختلفة. *(هذه الجملة الأخيرة بصوت خافت مشيرة إلى إدواردو.)*

أنخِلا-. لكن، ما اسم الفاجعة التي تجرحني؟ لا أدري.

إدواردو-. حانت ساعة التحقّق منها: اسمها بؤس وعار وموت لإنِسٍ، أم أنّ اسمها...؟

أنخِلا والدوقة-. إدواردو!

إدواردو-. عفواً، جميعنا مدينون اليوم للحقيقة. أنت قلت ذلك: "سأتسامح مع فاجعة دُن لورنِثو من أجل حبّي لك، حبِّكِ لي؛ ولن أتسامح مع عاره الذائع الصيت: ولا حتى على حساب حياتك." حياتي، يا أُمّي. أليس كذلك؟

الدوقة-. *(بنبرة حزينة لكنّها عنيفة.)* بلى.

إدواردو-. *(متوجّهاً إلى أنخِلا.)* إذن، حسنٌ، يا سيّدة، لنعرف اسم الفاجعة التي تجرحك؛ هل اسمها العار، أم الجنون؟ تلك

هي المسألة، ومن الضروري حلّها. إذا كان دُن لورنثو يقول الحقيقة، إذا كان عقله سليماً، إذا قدّم دليلاً على ما يقول، فلنحترم فضيلته القاسية. لكن إذا كان هناك كما أعتقد وبألف دليل جليّ بأن غشاوة أبديّة تغشى عقله وانطفأ نورُ رشده للأبد، عندئذٍ عليكِ أن تدافعي، يا سيّدة أنخِلا - وهذا واجب مقدّس عليك- عن الاسم الذي يحمله وضعك الاجتماعيّ، ثروتك، وشرف دُن لورِنثو نفسه، في مواجهة هذيانه؟ ولماذا لا نقولها بصراحة، عن سعادة وحياة إنِسّ. لا تتركي هذه المصالح العليا وهذا الهدف الغالي تحت رحمة مجنون.

الدوقة-. إدواردو!

إدواردو-. الكلمة قاسية، لكن كان يجب قولها في النهاية. لنعرف وننتهي ما إذا كانت معركة الشرف والحياة هذه التي وضعنا فيها دُن لورِنثو هي ما تبدو أو ما أخافُ وباختصار ما إذا كانت التضحية البطولية للعالم الذي لا يكلّ جنوناً أم قداسة.

الدوقة-. كفى، يا إدواردو! *(تجلس أنخِلا في الأريكة وتبكي بمرارة. تقترب الدوقة منها.)*

توماس-. *(إلى إدواردو.)* سعادة هذه الأسرة كأنّها سعادتي، تهمّني. ما تقترحه متوقّع، وهو ما سيحلّه القانون والعلم.

الدوقة-. أناركم الله. *(إلى أنخِلا.)* هيا، يا سيّدة، كوني شجاعة، وقنوعة. أين إنِسّ؟

أنخِلا- . هل تريدين رؤيتها؟

الدوقة- . بلى .

أنخِلا- . تعالي . *(إلى دُن توماس.)* وأنت أيضاً، أريدكَ أن تراها . .
منذ ثلاثة أيّام ما من شيء يمنحها القوّة إلاّ الحمّى...آه،
على ابنتي!... ابنتي تموت!

توماس- . بنت مسكينة! *(تخرج أنخِلا والدوقة ودُن توماس.)*

المشهد السادِس

إدواردو وحيداً

إدواردو- . ومازالوا يشكّون! يا للعمى! ولا يفهمون أنّ دُن لورِنثو الطيّب وبسبب أنّه يبحث ليس عن سبب الظلم مثل الفارس الجوّال وإنّما عن سبب كلّ الأسباب التي ابتدعها العلماء، انتهى إلى فقدان الشيء الوحيد الذي منحه الله له، ألا وهو العقل الطبيعي! يجب ألا يحدث. يجب ألاّ أسمح بأن يضحوا بحياة إنِس لأجل هذيان مجنون بائس!

المشهد السابع

إدواردو وإنِسّ التي تخرج مضطربة وكأنّها تهرب من الغرفة اليسارية حين دخل ممرِّضا مشفى المجانين.

إنِسّ-. من هذان الرجلان، من؟

إدواردو-. يا إنِسّ حياتي! كم أنتِ شاحبة! أية هالة زرقاء تحيط بعينيك الإلهيتين! (خارجاً للقائها.)

إنِسّ-. لكن أجِبْني! من يكونان؟ من ينتظران؟ ليذهبا! *(وهي تقترب بحذرٍ من الباب الذي بقي مفتوحاً وتنظر؛ يحاول إدواردو أن يأتي بها إلى مقدّمة الخشبة.)* في هذا شيء مشؤوم!... أبي... أين أبي؟ دخلتُ وأنا أبحثُ عنه عبر القاعة في هذه الغرفة ورأيتهما... لا أريدُ أن أراهما، ولا أستطيع أن أرفع عينيَّ عنهما.

إدواردو-. لكن، ما بك؟... لماذا لا تنظرين إليَّ؟ لماذا تهربين منّي؟ إنِسّ، إنِسّ، هل يثقل عليك حبُّنا؟

إنِسّ-. *(عائدة إلى مقدّمة الخشبة.)* حبّنا! أنت تعرف أنّه حياتي، لكن آه، يا إدواردو، لأيّ امتحانٍ مريع أراد الله أن يخضعه! أنت لا تعي هذا. حبّك سعادتي القصوى وأمل حبّك سعادة أكبر وأكبر، أكبر بكثير، فيه الحاضر وفي الأمل كلّ المستقبل. ومع ذلك، فإنّ الأمل ، يا حبّي، جريمة بالنسبة لإنِسّ المسكينة؛ جريمة؟ هل هناك قسوة مشابهة. ما لا

ينكره القدر على أيّ كائن بشريّ ينكره عليَّ. البارحة كنتُ طفلة: وتفكيري يسبح حالماً في يمبوس أبيضَ، شفّاف مثل ضباب منخفض بين أشعّة القمر، اليوم رصاص، حسب ثقله، واليوم حمم، بحسب لهيبه. لو رأيت أيّة أشياء رهيبة يقولها لي في صمت الليل! وهذه الأفكار ليست أفكاري، ليست إرادتي هي التي تشكّلها، تأتي لا أدري من أين، أردّها، لكنّها تعود، وتحاصرني أوّلاً بأنين يقول لي: " مسكينٌ أبوكِ" ثمّ تضايقني بأصواتٍ إغواءات تهمس: "إنِسّ، إنِسّ... من يدري؟ ما زال باستطاعتك أن تكوني سعيدة..، ما زال حبُّكِ ممكناً: انتظري...، انتظري...، أيّتها الصغيرة المسكينة." هل عرفت شيئاً أشدّ هولاً- لأنّه لا بدّ أن هذا هو إبليس- من أن تسمع الواحدةُ صوتَ إبليس في داخلها، إبليس الذي لا يُنْتَظَرُ منه شيء، يكلّمها عن الأمل؟

إدواردو-. عودي إلى رشدكِ، يا عزيزتي إنِسّ.

إنِسّ-. *(مقتربة من إدواردو.)* بي ندم!

إدواردو-. مِمَّ؟

إنِسّ-. لا أدري، فأنا لم أفعل شيئاً سيئاً. أبي! مسكينٌ أبي!

إدواردو-. يا ملاك حياتي! إنِسّ روحي! اهدئي، اهدئي، أرجوكِ.

إنِسّ-. انظر، يا إدواردو، بودّي لو أموت.

المشهد الثامن

دُن لورِنثو، إنِسّ وإدواردو. دُنّ لورِنثو يدخل من العمق ويتوقّف حين يسمع إنِسّ.

لورِنثو–. *(جانبيّاً.)* هل قالت أموت!

إدواردو–. أنتِ تموتين؟ لا يا إنِسّ، هذا لا. لا تقولي هذا.

إنِسّ–. لماذا؟ أنا لا أموت ألماً، إذا حقّقتُ السعادة متُّ ندماً.

لورِنثو–. *(جانبيّاً.)* ندماً! هي! إذا حقّقت السعادة! أيّ شؤم جديد يحوم في الجوّ ويثقل على جبيني؟ ندماً! فاجأت بمروري كلمة أخرى! أعبر قاعات ودهاليز وأمضي من مكان إلى آخر، مدفوعاً دون انقطاع بضيق لا يُطاق، وأسمع جملاً لا أفهمها وتحملق في عينيّ اللتين تقولان ما لا أفهمه أيضاً، بعضهم يبكي وبعضهم يبتسم ولا أحد يُعارضني وجميعهم يهربون مني أو يراقبونني... (بصوتٍ عالٍ.) ما هذا؟ ما هذا؟ *(بصوتٍ عالٍ.)*

إنِسّ–. *(وهي تذهب إليه وتعانقه.)* أبتِ!

لورِنثو–. إنِسّ! كم أنت شاحبة! أيّ انقباض مؤلم في شفتيك! لماذا تتظاهرين بالابتسام الذي سينتهي إلى الانتحاب؟... ما أجملها في ألمها! وكلّ ذلك بسببي!

إنِسّ–. لا يا أبتِ.

لورِنثو–. ما أقساني! آه، أنت تفكرين به وإن كنتِ لا تقولينه.

إدواردو- . إنِسّ ملاك، ولا مجال للأفكار المتمردة عندها؛ لكن من الذي يراها تتعذّب ولا يفكّر بذلك ولا يقوله؟

لورِنثو- . لا أحد . معك حقّ.

إدواردو- . *(بقوّة.)* أنا معي حقّ، لكن أنت لا .

لورِنثو- . معي أيضاً . هل هناك ما هو أكثر شحوباً من جبين فتاة عاشقة! هل هناك ما هو أكثر حزناً من دموع هاتين العينين الحزينتين؛ هل هناك ما هو أقسى من ابتسامة هاتين الشفتين وأكثر مأساوية من موت المحبوب!

إدواردو- . *(بعنف أو ازدراء.)* وما هذا الشحوب و الدموع والمآسي الأخرى؟

لورِنثو- . *(بقنوط.)* كان يجب ألا توجد! لكنها موجودة! *(وقفة.)* وهذا هو عذابي! وهذه الفكرة هي التي ستودي بي إلى الجنون!

إنِسّ- . لا، يا أبتِ، لا تقُل هذا!. تابع طريقك، ولا تفكّر بي. ما همّ إن عشتُ أو متّ!

لورِنثو- . إنِسّ!

إنِسّ- . لكن لا تتردّد ...، وإياك أن يراك أحد تتردّد، فلتكن كلمتك واضحة ومقنعة كما هي الآن؛ فلا يعميك الغضب... هدوء، هدوء، يا أبي. أطلب منك هذا بحقّ الله!

لورِنثو- . ماذا تقولين؟ ... لا أفهم!...

إنِسّ- . وهل أعرف ما أقول؟ وداعاً ...، وداعاً ...، لا أريد أن أضعف.

إدواردو–. *(إلى دُن لورنِثو.)* آه، لو تصغي إلى قلبك؛ لو تُخْرس تفكيرك!

إنِسْ–. (إلى إدواردو.) تعالَ معي... لا تُضايقه... وإلا جعلتني أمقتك!

لورنِثو–. يا لها من فتاة مسكينة!...أيضاً هي تُصارع لكنّها تنتصر أيضاً! لسبب ما هي ابنتي! *(باندفاع كبرياء عالٍ. تتوجّه إنِسْ وإدواردو إلى العمق وحين يمرّان أمام باب الغرفة ترى إنِس المرضين فتقوم بحركة رعب.)*

إنِسْ–. أيّة رؤى مشؤومة تمرّ أمام ناظري؟ هذان الرجلان... لا يا أبتِ، لا تدخل إلى هناك.

إدواردو–. تعالي، تعالي، يا عزيزتي إنِسْ!

إنِسْ–. *(إلى أبيها.)* لا ...، لا ...، أرجوك لا.

لورنِثو–. *(متوجّهاً إليها.)* إنِسْ!

إنِسْ–. هذان الرجلان! هذان! انظر. *(تمدّ ذراعها باتجاه الغرفة. يتوقّف دُن لورنِثو وينظر بدوره. في اللحظة التي يسمع بها المرضان الصياح يطلّان برأسيهما من بين الستائر.)*

إدواردو–. *(وهو يأخذ إنِسْ.)* أخيراً!...

المشهد التاسع

دُن لورِنثو، براوليو وبنيتو. وقفة قصيرة.

لورِنثـو- . من تراهمـا يكونان؟ ادخـلا . *(يدخل ممرضـا مـشـف المجانين ببعض الخوف؛ يتكلّمان بجملٍ مبتورة وجافّة.)*

براوليو- . دُن توماس...

لورِنثو- . *(جانبيّاً.)* فهمت.

بنيتو- . قال لنا أن ننتظر هناك...

لورِنثو- . اعذراني، لم أكن أعلم...

براوليو- . لا داعي للاعتذار.

لورِنثو- . *(جانبياً.)* حقيقة إنّه مظهر غريب. *(بصوتٍ عالٍ.)* لكـ اجلسا .

بنيتو- . شكراً.

براوليو- . نحن مرتاحان على كلّ الأحوال.

لورِنثو- . لا يمكن أن أقبل...

براوليو- . أنت تصرّ...

بنيتـو- . إذا كان السيّد يأمر فمن الأفضل أن ننتظر بهذا الشكل *(يجلسان على الأريكة. يبقى دُن لورنثو واقفاً.)*

لورِنثو- . *(جانبياً.)* إمّا أنّ هذه النظرات تعكس شيئاً مشؤوماً أو أ نظرتي تعكس بروقاً تعبـر نفسي. *(يراقبـهما من جديـ باهتمام. بصوتٍ عالٍ.)* إنِس هي التي رأتهما عند مروره

وحذّرتني.

براوليو-. بلى، إنّها آنسة جميلة جدّاً

بنيتو-. لكنّها حزينة جدّاً.

براوليو-. تبدو مثل مريم الآلام. *(مع كلّ ردّ يقوم به الممرضان والذي يجب أن يكون مبتوراً وجافّاً، كما قلنا، يلزمان صمتاً، لنقل مباغتاً، ويبقيان متخشّبين بلا حراك ينظران أمامهما بشيء من الشرود.)*

لورنثو-. خافت حين رأتكما، وجاءت هاربةً، لا تستغربا، فالمسكين مريضة جدّاً... تكاد تكون طفلة...

براوليو-. *(بابتسامة تائهة وكأنّه أبله.)* هذا ما يحدث معنا دائماً في البيوت.

لورنثو-. *(جانبياً وباستغراب.)* في البيوت!

بنيتو-. *(واضعاً نظره على دُن لورنثو لأوّل مرّة ثم يعود لينظر أمامه.)* تراها ابنة هذا السيّد المسكين. أليس كذلك؟

لورنثو-. ابنة من؟

بنيتو-. *(دونَ أن ينظرَ إليه.)* ابنة الموجود... *(يقوم بحركة، رافعاً يده إلى جبينه، لكن دون أن ينظر إلى دُن لورنثو. يقوم دُن لورنثو بدوره بحركة أخرى وحده الممثل يستطيع أن يترجمها كما يجب. وبما أنّ الممرضين لا ينظران إليه فإنهما لا يستطيعان مراقبته.)*

لورنثو-. *(جانبياً.)* آه، لا! ما هذه الفكرة!. *(بصوت عالٍ ويسيطر على نفسه.)* تماماً؛ إنسٌ هي ابنة... *(يراقبهما دُن لورنثو*

منذ هذه اللحظة بقلق أكبر.)

بنيتو-. ما أجملها، لكن ما أحزنها!

براوليو-. صحيح، عندها أسباب كي تكون حزينة.

لورنثو-. هل تعرفان؟

براوليو-. *(وهو ينظر مرّة أخرى إلى دُن لورنثو ثمّ يرفع نظره عنه.)* كلّ شيء.

لورنثو-. هل دُن توماس من قال لكما؟

بنيتو-. لنا؟ لا.

براوليو-. هو تكلّم مع الدكتور؟-.

بنيتو-. نحن؟ بأيّ هدف؟ نحن نقوم بواجبنا...

لورنثو-. *(جانبياً.)* أشعر بعرق باردٍ، كأنّه عرق الموت، لكنّ جسدي كلّه. أنا أهذي... لا شيء من هذا حقيقة. *(وهو يردِّدُ آلياً.)* بواجبهما...

براوليو-. نحن بوجودنا في حالة ترقّب حتى إذا تجاوز بسلوكه...

لورنثو-. تجاوز بسلوكه... من؟

براوليو-. هو!

لورنثو-. *(يتراجع عدّة خطوات، وينظر إليهما برعب، يمرّر يده على جبينه، كما لو ليبعد فكرة، يتراجع أكثر، يتردّد ويستندُ إلى الطاولة. يتكلّم بعدها بصوتٍ كتوم، خافت جدّاً وبكلمات متقطّعة.)* إذن أنتما تعرفان كلَّ شيء؟

براوليو-. تقريباً.

بنيتو-. بما أنّنا ننتظر منذ مدّة طويلة سمعنا كلّ أحاديث الخدم.

لورِنثو- . وهم؟

براوليو- . من الألف إلى الياء. يبدو أنّ دُن لورِنثو قد مرّ ليلة أمس بنوبة. أنت تعرف أكثر منّا.

لورِنثو- . *(بصوت في كلّ مرّة أكثر خفوتاً وجهامة.)* بلى.

بنِيتو- . يُقال إنّه خنق عجوزاً مسكينةً. *(يقوم دُن لورِنثو بحركة رعب ويغطي وجهه بيديه من جديد.)*

براوليو- . رهيب هذا الرجل! بداية جيّدة!... وطبعاً... دائماً يحدث الشيء ذاته... الأسرة...

لورِنثو- . الأسرة! *(مبعداً يديه ويسير خطوات كأنّ تيّاراً كهربائياً يهزّه، ينظر إليهما بجزع كبير متكلّماً بصوت أصمّ.)*

براوليو- . الأسرة...، شيء طبيعي...، كما يقولون إنّه يريد أن يهدي كلّ ثروته! ما أدراني كم من الملايين! شيطان مجنون! لا شيء؛ الأفضل هو ما أعدّوه: إلى الخارج، إلى الخارج. نحمله وترتاح السيدتان...

لورِنثو- . لي أنا؟ هما؟ أنخِلا؟ إنِسّ؟... لا! لا! محال! *(يتراجع من جديد نحو اليسار. وحدها فطنة الممثل تستطيع أن تترجم هذه الصرخات التي تمزّق القلب.)*

براوليو- . *(ملتفتاً إلى دُن لورِنثو. جانبيّاً.)* لكن ما به هذا السيّد؟ *(إلى بنِيتو.)* انظر...، انظر...، *(ينتفض المرضان وينحنيان نحو اليسار؛ وهما ينظران إلى دُن لورِنثو. يجب أن تُدرَسَ المجموعة التي تشكّلها الشخصيات المذكورة بعناية.)*

لورِنثو- . هواء! نور! لا... نور، لا! ظلام! لا أريد أن أرى! لا أريدُ أن

أفكّر! (*يسقط على الكرسي الكبير ويغوص برأسه بين يديه.*)

بنيتو-. تصوّر! أظنّه هو...

براوليو-. حسناً نكون قد فعلناها!

بنينو-. من كان سيظنّ!

براوليو-. لنعد إلى مخبئنا.

بنيتو-. و... صه! لا نقولُ شيئاً. (*ينهضان، يتوجّهان إلى الغرفة بحذر شديد وهما يراقبان دُن لورنثو دون توقّف.*)

براوليو-. طبعاً. ولا كلمة. أرسلونا إلى هناك، ونحن هناك. كان علينا ألاّ نتحرّك.

بنيتو-. بما أنّنا سمعنا صراخاً وبكاءً... (*يصلان إلى الباب، يتوقّفان وينظران إلى دُن لورنثو، الذي ما زال في وضعيته. يدخل الخادم من العمق، يمرّ مسرعاً ويخرج من جهة اليمين.*) اتركه... اتركه... ما دام هادئاً. (*يدخلان إلى الغرفة ويغلقان عليهما الباب.*)

المشهد العاشر

دُن لورنثو ودُن توماس ومع الخادم من جهة اليمين.

لورنثو-. يا إلهي! أبعِد الكأسَ عن شفتيّ!... لا أستطيع أكثر، لا أستطيع أكثر!... المسألة أنّني لا أستطيع أكثر! (*يَجهشُ*

بقنوط.) جعلتني أؤمن بهما!... جعلتني أُحبّهما!... وهما، يا للخائنتين!... لا!... لا! يا ربّ فقد منحتني الحياة، فانزعها منّي بسرعة!... انظر...، أريد أن أموت! ينتابني إغواء رهيب بانتزاع لحمي الفاسد! بيديّ ذاتهما! أموت...، أريدُ أن أموت!... أرأيت؟ أرجوه منك راكعاً على ركبتيّ!... على ركبتيَّ!... كنْ طيّباً!... كن رحيماً!... الموت!... الموت لي، رسول حبّك الشاحب! *(يسقط على ركبتيه بجانب الكرسيّ الكبير، ويستند إليه، يحني رأسه ويخفيه بين يديه.)*

توماس-. *(بصوت خافت إلى الخادم.)* هل يأتيان؟

الخادم-. نعم، يا سيّد؛ الكاتب والدكتور برمودِث. *(يتوقّف دُن توماس والخادم في وسط الخشبة حين ينتبهان إلى دُن لورِنثو الذي ما زال على ركبتيه وهو ينتحب.)*

توماس-. *(متقدّماً خطوة نحو دُن لورِنثو. يندم بعدها ويتوجّه إلى الوسط.)* لماذا؟ علينا أن ننتهي بسرعة. *(يخرج دُن توماس والخادم.)*

المشهد الحادي عشر

دُن لورِنثو، ثمّ دُن توماس والدكتور برمودِث.

لورِنثو-. ها قد هدأتُ أكثر! الجرح قاتل! أُحسّ به... هنا في

القلب! شكراً لك يا إلهي الطيّب! *(يدخل دُن توماس والدكتور من العمق، يتوقّفان ويراقبان دُن لورنثو.)*

توماس-. انظر إليه هناك...، بجانب الكرسيّ!

الدكتور-. بائس!

لورِنثو-. *(وهو ينهض، جانبيّاً.)* إيه، أيّها الكائن البائس! ما زلت...، ما زلت تداعب آمالاً مُحالة... محالة؟... ماذا لو كانتا تعتقدان بصدق أنّني...؟ آه، لو كانتا تحبّاني لما صدّقتا! *(بقنوط. وقفة.)* أنا سمعت إنسٌ... سمعتُ ابنة روحي...، تقول كلمة: "ندم!" لماذا كانت تقول كلمة ندم؟ *(باضطراب متنام وصوت عالٍ.)* الجميع... بؤساء!... تقريباً يسعدون لو متُّ... لا... لن أموت حتى أقوم بواجبي كرجل شريف. حتى أضع نهاية لجنوني.

توماس-. *(وهو يضع يداً على كتفه.)* لورِنثو.

لورِنثو-. *(يلتفت ويتراجع بانزعاج حين يعرفه.)* هو!

توماس-. أُقدّم إليك السيّد بِرمودِث، واحد من أفضل أصدقائي. *(وقفة. ينظرُ دُن لورِنثو إليهما بطريقة غريبة.)*

الدكتور-. *(إلى دُن توماس بصوت خافت.)* انظر كيف يحاول السيطرة على نفسه: عنده وعي مشوشّ عن حالته، لا شكّ عندي بذلك.

لورِنثو-. واحد من أفضلِ أصدقائك... واحد من أفضل أصدقائك...

الدكتور-. *(جانبياً، إلى دُن توماس.)* تفلت منه الفكرة ويجهد نفسه

في الإمساك بها.

لورِنثو-. *(ساخراً.)* إذا كان واحداً من أفضل أصدقائك فمن وفائه تصيبني حصّة.

الدكتور-. *(جانبياً إلى دُن توماس.)* عثر أخيراً على الجملة، لكن انظر لنبرته كم هي غير طبيعيّة. *(بصوت عالٍ.)* جئت شاهِداً، بحسب ما يؤكّد لي دُن توماس، على لفتة فّي غاية النبل.

لورِنثو-. وكذلك على خيانة كريهة.

توماس-. لورِنثو!

الدكتور-. *(جانبياً إلى دُن توماس.)* دعه يتكلّم.

لورِنثو-. وعقاب نموذجيّ.

الدكتور-. (جانبياً إلى دُن توماس.) خطير جدّاً، يا صديقي دُن توماس...، خطير جدّاً.

لورِنثو-. *(إلى دُن توماس.)* أخبر الجميع.. الجميع، الأقرباء والغرباء. ليأتوا إلى هنا، وينتظروا أوامري هنا، ريثما أقوم بواجباتي هناك. ماذا تنتظر؟

الدكتور-. *(جانبياً إلى دُن توماس.)* يجب عدم معارضته؛ أخبِرْا. *(يقرع دُن توماس جرساً، يظهر خادِم، يكلّمه بصوت خافت ثم يخرج من جهة اليمين.)*

لورِنثو-. إنّه البرهان الأخير. يحزنني الخونة تقريباً. آه، الثقة بالانتصار تجعلني متماسكاً. اهدأ، يا قلبُ. هاهما... هاهما... لا أريد رؤيتهما!...لي أنا الذي طالما أحببتُهما!...

لا أريد...، وإليهما تلتفت العينان...، تبحثان عنهما... وتبحثان!...

المشهد الثاني عشر

المذكورون، إنِسّ، الدوقة وإدواردو من جهة اليمين.

لورِنثو-. إنِسْ! غير ممكن!... هي! غير ممكن!... بُنيَّتي! *(يُسارع نحوها بذراعيه المفتوحتين. تجري إنِسّ للقائه.)*

إنِسّ-. أبتاه! *(حين توشك على عناقه يتدخّل برِمودِثّ الذي يفصل بينهما بعنف.)*

الدكتور-. هيّه، كفى... يمكن أن تسبِّب لابنتك أذى شديداً، يا دُن لورِنثو.

لورِنثو-. *(يمسك به من ذراعه ويهزّه بعنف.)* بائس! من تكون كي تفصل بيني وبينها؟

توماس-. لورِنثو!

إدواردو-. دُنْ لورِنثو!

أنخِلا-. يا إلهي! *(تجتمع النسوة غريزياً، إنِس بين ذراعي أمّها، وبجانبهما الدوقة؛ يُهرع دُن توماس وإدواردو ليخلّصا برِمودِثّ من بين يدي دُن لورِنثو.)*

لورِنثو-. *(وهو يسيطر على نفسه وجانبياً.)* هاهه! سيفكّر البلهاء أنّها نوبة جنون جديدة! جنون! ها، ها، ها! *(يضحك*

مقهقهاً، الجميع يراقبونه.)

الدكتور- . *(جانبياً إلى دُن توماس.)* شيء واضح.

أنخِلا- . *(جانبياً.)* آه، مسكين لورِنثو!

إنِسّ- . آه، يا أبتِ!

لورِنثو- . *(جانبياً.)* سوف ترون كيف سينتهي جنوني. قبل الخروج من هذا البيت، بأيّ متعة سأرمي بهذا الدكتور! همّة! الصراع يمنحني قوّة. ماذا؟ ألا يوجد غير أن يعلن عن جنون رجل لأنّه يقوم بواجبه؟ آه، غير ممكن. ليست الإنسانية عمياء إلى هذا الحدّ أو ساقطة. كفى، اهدأ! خيانة، ابدأ أنت، عاقِبْ. *(بصوتٍ مرتفع.)* حانت ساعة أن أتمّ واجباً مقدّساً، وإن كان بكلّ الأحوال مؤلماً. من غير المجدي أن تحضروا أنتم شكليات يتطلّبها القانون وهي مزعجة جدّاً. فها هو ممثل القانون ينتظرني هناك وأنا بتنفيذي لقانون أسمى سوف أجرِّد نفسي من أملاك ليست لي ومن اسم، لا أنا في ضميري أستطيع أن أحمله ولا أسرتي. بعدها سآتي إلى هنا مع زوجتي ومع... مع ابنتي، دون أن يستطيع أحد منعي، دون أن تستطيعوا أنتم مقاومتي، سأخرجُ من هذا البيت، الذي كان بالنسبة لماضيَّ حبّاً وسعادة صار اليوم خيانة وعاراً. أيّها السادة *(إلى دُن توماس وبرمودِثّ.)* أنتما تتقدّماني، أرجوكما. *(يدخلون جميعاً إلى الغرفة اليسرى ببطءٍ. يوجّه دُن لورِنثو حين يخرجُ نظرةً إلى إنِسّ.)*

المشهد الثالث عشر

أنخِلا، إنسّ، الدوقة وإدواردو. النساء الثلاثة في البعد الأوّل. إدواردو يصغي عند باب الغرفة.

إنِسّ–. أنقِذْهُ، يا إلهي!

أنخِلا–. *(معانقة ابنتها.)* بلى، معكِ حقّ. لنفكِّر به فقط. لنصلّ من أجله فقط!

الدوقة–. واجبكما المقدّس أن تقدِّما سعادةَ دُن لورنثو على سعادتكما، لكن على كلِّ الأحوال، هناك واجب أكثر قداسة ألا وهو القبول بإرادة أعلى من إرادتنا. *(وقفة.)*

إنِس–. *(إلى إدواردو.)* ماذا يقول؟ بالله عليك!... ماذا يقول؟

إدواردو–. إنّه يتكلّم؛ جملته باردة وصارمة، لكنّها غير متردّدة ولا غامضة. *(يعودُ إدورادو إلى الباب.)*

أنخِلا–. يا للضيق، يا للقلق! الموتُ أفضل من هذا العذاب!

إنِسّ–. ماذا يهمّ ما يقوله أبي، إذا كان قد حُكِمَ عليه مسبقاً!

إنخِلا–. لا يا بُنيَّتي، لا تقولي هذا.

إنِسّ–. بلى، أقوله، لأنّني أشعر به، لأنّني أراه فيمن هم الآن قضاته.

أنخِلا–. لكن ماذا ترين؟

إنِسّ–. في هؤلاء الناس جنون المهنة...

أنخِلا–. وفي توماس؟

إنِسّ-. آراؤه العلمية... ما أدراني... جنون بحدّ بذاتها...

أنخِلا-. لكن وفيّ؟

إنِسّ-. *(وهي تُعانقها.)* الحب الذي تكنينه لي!

أنخِلا-. اسكتي، يا إنِسّ، اسكتي!

إنِسّ-. الجميع ضدَّ أبي! مسكين أبي!

الدوقة-. انتِ تهذين، يا إنِسّ.

إنِسّ-. بلى، أهذي، مثلك، مثلنا جميعاً، إلاّ هو!... إلاّ هو!... قلبي يُحدّثني! أنتِ نفسكِ، يا سيّدة، ما ترغبين به هو سعادة إدواردو؛ وإدواردو حبيبي وحبيبته أنا؛ وأبي، فضيلته، نزاهته وشرفه عوائق أمامنا جميعاً وفينا جميعاً يهتزّ شيءٌ غامض يلفّ بالظلام ضمائرنا. أبتاه! أبتاه!

أنخِلا-. بالله عليكِ، يا إنِس، ما هذه الأفكار!

إدواردو-. *(مقترباً.)* يتكلّم عن برهانٍ قاطعٍ.

إنِسّ-. والآن؟

إدواردو-. يُطالبونه بتقديم البرهان ليضمنوه في المحضر وليُسلّم إلى القاضي.

أنخِلا-. وهو؟

إدواردو-. هو يبتسم ابتسامة النصر. إنّه شاحب، شاحب جدّاً، لكنّه رصين وشهم. ها هو يقترب. *(يأتي إدواردو إلى مقدمة الخشبة ويقول جانبياً.)* يُخيفني هذا الرجل.

إنِسّ-. (جانبياً.) يا حبّذا...، حتى ولو مات حبيّ!

أنخِلا-. (إلى الدوقة.) هل هذه هي الحقيقة؟

الدوقة-. *(إلى أنخِلا.)* هل هي الحقيقة؟

إدواردو-. (جـانبيـاً، وهو يرى دُن لورِنثـو يدخل.) آه، تراني أنا الغبي؟

المشهد الرابع عشر

أنخِلا، إنِسَ، الدوقة، دُن لورِنثو، الدكتور ودُن توماس. حالة الشخصيات هي التالية: تشكل النسوة الثلاثة مجموعة، مترابطة جدّاً بجانب الأريكة التي يتكئن عليها. إدواردو خلف الأريكة وهو ينظر إلى دُن لورِنثو كأنه خائف منه ويسيطر عليه. دُن لورِنثو يتقدّمُ هادئاً وشامخاً نحو وسط الخشبة. خلفه يأتي دُن توماس وبِرمودِث، يتوقّفان على بعد خطوات من الباب

لورِنثو-. (وهو يقترب من الطاولة ويضع يدَه بطريقة انتصارية على المكتب.) هنا البرهان!... هنا الحقيقة! *(وقفة. يفتح مكتب المذاكرة ويخرج الظرف، مع الورقة البيضاء. يتقدّم بعدها نحو مقدّمة الخشبة. يقترب منه دُن توماس وبِرمودِث من جانب، وإدواردو من آخر.)* تعساء من كانوا يتصوّرون أن يضحّوا بي من أجل مصلحتهم وعواطفهم! ما أمرّ انكشاف الخديعة! كم سيكون العقاب قاسياً! حبّذا لو يمكن لغفراني تصوّره!! *(متأثراً بشكلٍ عميق.)*

أنخِلا–. *(وهي تقترب.)* لورِنثو!

إنِسّ–. أبتاه!

لورِنثو–. هذا هو الدليل، يا توماس؛ هذا هو البرهان، يا أنخِلا؛ هذا هو البرهان، يا بُنيّتي! اسمعوا. *(وقفة. يمزّق دُن لورِنثو المغلّف. يقترب الجميع منه ويحيطون به.)* هذا هو... ما هذا؟ *(يبعد الورقة عن عينيه ويمر بيديه عليهما.)* أية ظلمات تغشى عينيّ؟ هل من دموع فيهما تمنعني من الرؤية؟ لا... بكيت من قبل... والآن أنا لا أبكي. *(يعود لينظر إلى الورقة بقلق رهيب، يفضّها، يعيدها، يبحث عمّا هو مكتوب في كلّ مكان.)* لكن أين ما كتبته تلك المرأة؟... أنا قرأته ألفَ مرّة... ولا أستطيع الآن... *(إلى دُن توماس وهو يريه الورقة.)* ماذا تقول هنا؟... اقرأ، اقرأ بسرعة... ماذا تقول؟

توماس–. لا شيء، يا مسكين، يا لورِنثو!

لورِنثو–. لا شيء! *(وهو ينظر مرّة أخرى إلى الورقة.)* أنت تخدعني! برمودِثْ هذا يخدعني! هو واحد من البوساء الذين دبّروا هذه الخيانة المُهينة... اقرأ أنت... اقرأ أنت...

الدكتور–. الورقة بيضاء.

لورِنثو–. لا شيء مكتوب! هل تقول إنّه لا شيء مكتوب فيها؟ ليس صحيحاً...لا ...ليس صحيحاً! أنِسّ، بُنيّتي، وحبّي الوحيد، تعالي وأنقذي أباكِ!... ماذا تقول هنا؟

إنِسّ– لا أرى شيئاً، يا أبي!

لورِنثو- . لا شيء... هي أيضاً... لكن أليس هذا برهان؟

توماس- . بلى، يا صديقي الشقيّ... برهان... وقاسٍ جداً.

لورِنثو- . *(ضارباً بكفّه على جبينه.)* آه، فهمت. *(وهو ينظر إلى دُن توماس وأنخِلا.)* كنتما تتكلّمان قبل هذا عن برهان!... أنتَ!... وأنتِ! *(إلى أنخِلا ودُن توماس.)* أخرجتماه من هنا!... يا يسوع!... يا يسوع! *(يبتعد عنهما مرعوباً، يبتعد الجميع عنه وبذلك يصبحون في الوسط، لكنّهم معزولون قليلاً. يترجم الممثّل هذه اللحظة كما يراها مناسبة. وقفة.)* ليكن!... ليكن!... مهزوم!... مهزوم بشكل بائس!... آه، كيف يتمتعون بانتصارهم! بأيّ ألمٍ منافق يتأمّلونني! ويتظاهرون بالبكاء!... جميعهم يتظاهرون! *(وقفة.)* آه، قلبي! آه، من أوهام الحياة!... آه من الحبّ!... آهٍ... من ابنتي! ابنتي!... أشباح تدور وتهرب... اهربوا للأبد! وأنا كنتُ أؤمن بكلّ شيء! كم كانت السماء زرقاء! وكم كانت جبهة إنسٍ بيضاء! والآن، بماذا سأؤمن؟ هاأنتم ترون: لا أُقاوم. أذعنُ. النصر لكم. هؤلاء الرجال، لماذا جاءوا؟ سأذهبُ إلى حيثُ تشاءون. وداعاً! (إلى دُن توماس الذي يقترب منه ويأخذه من يده.) لا تلمسني! حين تلامسني البشرة الإنسانية أشعر وكأنّ أفاعيَ تنزلق على لحمي! أنا وحدي... وحدي سأصعدُ إلى جلجلتي حاملاً صليب آلامي، دون عار. ليساعدني ثيرينثو! وداعاً، يا صديقي الوفي! (دائماً إلى دُن توماس.) أنت الذي أنقذت ثروة هذه

الأسـرة المكروبة من يدي مـجنون. وداعـاً، يا أنخـِلا... يا زوجتي الرقيقـة... عشرون عاماً مرّت على منحـي القبلة الأولى لك وأنا مـجنون حبّاً! واليوم مـجنون أيضـاً أرسل لك القبلةَ الأخيرة! *(يرسل قبلة مع صرخة قنوطٍ رهيبة.)*

أنخِلا–. لورِنثو!

لورِنثو–. لكن لا تقتربي فقد أخنقكِ بين ذراعيَّ! *(تتراجع أنخِلا.)* وداعـاً، يا إنِسَ، يا بُنيّـتي! *(بصوتٍ منتحِب.)* كـوني... إن استطعت، سعيدةً... فأنتِ لا أقـول لك شيـئاً... لا أستطيع أن أكلّمك بغضب! *(يتقدّم بعض الخطوات ويتوقّف، تنقصه القـوّة؛ يريدون الاقتـراب منه فـيرفضـهم.)* اتركـوني؛ لستُ بحـاجةٍ لأحد. فـالعرق يبلّل جـبيني والعطش يجفّف شفتيّ وشـيء يحـرق كثيراً يورّم أجفـاني. *(يتوقّف.)* اسمعـي... يا إنِسَ! بُنيّـتي! إذا كنت مـا تزالين تحـتفظين بشـيء من الحبّ نحـوي، وإذا كنتِ تشـعـرين بالشـفـقـة نحـو والدك! إذا كـان يُثقل عليكِ ما فعلتموه بالتواطؤ فيمـا بينكم... فتعـالي إلى ذراعـيَّ! لأحـمل إلـى جـحـيم الألمَ الذي ينتظرني دمـعـةً من عينيك على جبيني وقبلة من شفتيكِ على شفتيَّ!

إنِسَ–. أبتِ! *(يريدون الإمـسـاك بهـا لكنهـا تتـخلّص من الجـمـيع وتجـري باتجـاه دُن لورِنثو، الذي يُهـرع نحـوها ويشـدّها إلى صدره بعنف.)*

لورِنثو–. بُنيّة! *(الجميع يُهرعون نحـوهما لكن دون محـاولة الفصل بينهما بعد.)*

إنِسَّ–. لا ...، يجب ألاّ يحملوك! أنا أُحبُّك!... جميعهم يكذبون، إلاّكَ!

لورنثو–. أنتِ لا تريدين لهذين الرجلين أن يحملاني؟

إنِسَّ–. لا ...، لا! مدافعة عنك! مُدافِعاً عنّي!...

لورِنْثو–. *(يريدُ أن يهرب معها... شادّاً إيّاها إلى صدره.)* نعم!... سأحميك! ... فلينتزعوك من يديَّ!

أنخِلا–. بُنَيّتي!... بُنَيتي!... النجدة *(يجهدُ إدواردو ودُن توماس وبرمودِثّ لفصل الأب عن الابنة.)*

لورِنثو–. لن أفلتها! للأبد إلى صدري!

إنِسَّ–. بلى، يا أبتِ! احمِني!

الدكتور–. ضروريّ.

إدواردو–. دُن لورِنثو!

توماس–. لورِنثو!

الدوقة–. يا إلهي! سيقتلها كما قتل خوانا!

أنخِلا–. إنِسّ! *(جميع هذه الصرخات شبه تلقائية، العراك سريع؛ يخرج المرضان؛. يمسكُ الرجال أخيراً بدُن لورِنثو وتمسكُ المرأتان بإنِسّ وتنتزعان بهذا الشكل وبالقوّة الابنة من بين ذراعي أبيها.)*

إدواردو–. أخيراً!

لورِنثو–. لم أستطِع، يا بُنيّتي! لم أستطع أكثر... على وجهي أشعر بدموعك وقبلاتك... هي كانت تُحبّني... كانت بريئة... يا إلهي، إنّي أرى ذلك، قبلتَ عذابي في ليلة الصراع والإغواء. تلك مقابل سعادتها!... ولي... لي فقط كأس المرارة!...

إنِسْ-. وداعاً! سأذهب لإنقاذك!

لورِنثو-. وماذا تستطيعين أنتِ... يا بُنيَّتي... إذا لم ينقذني الله؟

(يبقى قرب الغرفة بين الممرضين وإدواردو ودُن توماس وبِرمودِثْ الذين يمسكون به. إنِس التي تمسك بها المرأتان في البعد الأوّل تمدّ إليه ذراعيها. ستار.)

نهاية

جنون أو قداسة.

الفهرس

خوسه إتشغاراي

نوبل ١٩٠٤

- مسرحيّ إسباني من مواليد مدريد ١٨٣٢، عمل مدرساً للرياضيات والفيزياء في مدرسة المهندسين في مدريد، ووزيراً للتجارة والتربية والاقتصاد بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٤ ثم عاد وشغل منصب وزير الاقتصاد في عام ١٩٠٥.
- بدأ كتابة أعماله المسرحية النثرية والشعرية، التي بلغت أكثر من ستين عملاً، عام ١٨٧٤، مزج فيها بين العظمة والتأثيرية. شكّل حالة غريبة بل واستثنائية في تطور المسرح الإسباني، فقد حطّم الواقعية والاعتدال ودراسة الطبيعة البشرية التي بدأها فرانسيسكو د أيالا ليعود إلى مبالغة الرومانسية المفرطة. جمع في مسرحه بين عنف الرومانسية وهموم اللحظة.
- ظهرت في أعماله الأخيرة أصداء هنريك إبسن.
- حصل في عام ١٩٠٤ على جائزة نوبل للآداب مناصفة مع الكاتب البروفنسالي فردريك ميسترال.
- توفي في عام ١٩١٦.